



من الشرق والغرب



السد العالي فوق النوبة

بقلم لسامى جريزة

ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدي حافظ

HIGH
DAM
OVER
NUBIA

Leslie Greener



للمزيد من الكتب

<https://www.facebook.com/groups/histoc.ar>

لقراءة مقالات فى التاريخ

<https://www.facebook.com/histoc>

<https://histoc-ar.blogspot.com>

السِّدْرُ الْعَالِي

فوق النُّبُوَّةِ

بقلم: لسای جرینر

إهداء

أهدي مؤلفي هذا إلى أصدقائي
المُصْريين وسَدِّهم العالی
متمیناً لآم الصحة والرخاء والعیش الرغید
المؤلف

تقديم

تلقى الدكتور « لسلى جرينر » - مؤلف هذا الكتاب - تعليمه في كلية « ساند هيرست » العسكرية ، والتحق ، بعد تخرجه ، بالجيش الهندي ، وبعد فترة وجيزة ، اعتزل الخدمة ، وقام برحلات طويلة في استراليا ونيوزيلندا ، ثم عاد الى فرنسا للدراسة الفنون ، ومنها الى مصر حيث اشتغل بالتدريس : اذ اجتذبه دراسة الآثار المصرية ، فانضم الى بعثة جامعة شيكاغو ، التي كانت تعمل في المنطقة الاثرية بمدينة الاقصر ، وقد أسندت اليه الجامعة بعد الحرب العالمية الثانية ، مهمة استئناف بحوثه الاثرية في مصر ، وهو يمضي شتاء كل عام في مصر باحثا ومنقبا ومؤلفا عن الآثار المصرية .

و « جرينر » يعنى عناية خاصة بصيانة الآثار المصرية ، ومن اجل ذلك ذهب الى النوبة عضوا في للبعثة التي أرسلها المعهد السويسري بالقاهرة ، ومعهد الدراسات الشرقية في شيكاغو لاتمام فحص معبد رمسيس الثاني في « بيت الوالى » بالنوبة ، واعداد تقرير عنه .

وقد انتهز « جرينر » فرصة وجوده في بلاد النوبة ، فدرس المنطقة دراسة تاريخية منذ عهد الاسرات القديمة ، من فرعونية وكوشية ، حتى الوقت الحاضر ، وهي فترة تمتد اربعة آلاف سنة عبر التاريخ .

وقد تكلم « جرينر » عن بلاد النوبة وآثارها التاريخية ، ثم قال : ان آثار النوبة تراث دولي ، يجب ان يتضامن العالم المتمددين في المحافظة عليه . وان ضياع تلك الكنوز الاثرية التي تحتويها ارض النوبة مأساة كبيرة للحضارة الانسانية .

يبدأ « جرينر » باهداء مؤلفه الى اصدقائه المصريين وسدهم العالي متمنيا لهم الحياة الطيبة والرخاء والعافية . ثم يقسم تاريخ النوبة الى فترتين : ففي الفترة الاولى يتحدث عن مشاهداته في المنطقة وعن مشروع السد العالي ، وعن الحاجة الماسة التي دفعت بالرئيس جمال عبد الناصر لاقامة هذا السد .

وفي الفترة الاخرى : يتحدث عن تاريخ النوبة القديم منذ عهد الفراعنة والكوشيين . ثم الاغريق ، والرومان والعرب ، والمماليك ، والترك ، حتى عصر محمد على .

يقول المؤلف : ان مصر كانت تضيق بسكانها حينما كانوا عشرة ملايين فقط ، وان كان تعصف الترك واستغلال الاستعمار عنصرا قويا

في تبيد ثروة البلاد ، وفي تعداد سنة ١٩٤٧ ارتفع عدد سكان مصر الى ١٩ مليوناً ، وفي سنة ١٩٦٠ أصبحوا أكثر من ٢٥ مليوناً ، وعلى هذا المعدل فسوف يكون سكان مصر عام ١٩٧٠ ، أكثر من ثلاثين مليوناً . يعيشون في هذا الوادى الضيق الذى تحده الصحراء من الجانبين .

وليس لهذا التضخم من حل الا أحد امرين : فاما ان يهبط تعداد السكان الى خمسة عشر مليوناً ، واما التحكم فى المائة والثلاثين ملياراً من الامتار المكعبة ، من مياه الفيضان التى تذهب سدى الى البحر . وبذلك يمكن زيادة الارض الزراعية ، وانشاء الصناعات التى نواجه حاجة السكان ، وهكذا كانت هناك ضرورة ملحة لانشاء السد العالى . واذا كان هذا السد يغير معالم النوبة ، ويخفى تحت طبقات الماء كثيراً من بقايا جهود الانسان عبر التاريخ من مقابر ، ومدن . وقلاع ، ومعابد وثنية ، وكنائس مسيحية ، ومساجد اسلامية - فانه سوف يجلب الرخاء لاهل النوبة الفقراء ، ويرفع مستوى معيشتهم ويحول دون هجرتهم الى القاهرة ومدن الدلتا سعياً وراء الرزق .

وبين « جرينر » عظمة السد العالى فيقول : ان أضخم سدود العالم المنشأة على الصخر مثل السد العالى ، هى سد « ديفز » على نهر كلورادو . وسد « مايبور » فى اليابان . وسد « سير بونسو » فى فرنسا . ولكن اذا أفرغت المياه التى تحجزها السدود الثلاثة فى البحيرة التى يكونها السد العالى ، فانها لن تملأ الا نصفها ، كما ان القوى الكهربائية التى تولدها السدود الثلاثة مجتمعة لن تزيد على ثلث انتاج السد العالى من الطاقة الكهربائية .

ويعلق على مشروع السد قائلاً : انه اذا كانت بعض الدول الكبرى توجه اليوم الى الرئيس ناصر ، لاتفاقه مع روسيا على بناء السد : فالواجب ان تلوم نفسها أولاً ، لان السد لم يكن نزوة من نزوات عبد الناصر ، كما تخيلته هذه الدول ، وانما هو ضرورة حيوية لمصر .

ويشنى المؤلف على الجهود التى بذلت لانتقاذ آثار النوبة، وخاصة تلك التى بذلتها جامعة كولومبيا ، اذ ارسلت بعثة من خيرة علماء الآثار ، للقيام بدراسة تاريخية لمنطقة النوبة كما ان علماء الآثار من بلاد مختلفة . تطوعوا للمساهمة فى هذا العمل الحضارى العظيم .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن تاريخ النوبة فيقول : انها بلاد « كوش » القديمة . ويرجح ان بعض جماعات من الكوشيين رحلت شمالاً مع النيل حتى بلغت صعيد مصر . وان الفرعنة ليسوا الا سلالة تلك الجماعات الكوشية المهاجرة الى الشمال ، وقد عثر على صخرة من صخور شلال أسوان عليها نقوش تظهر الفرعون «سنوسرت» « مع الآلهة » « انوكيت » الهة النوبة . وبجانبها « ساتيت » الهة « الفانتين »

كذلك عثر عند « سمنه » على عمود حجرى ذى أهمية أثرية أكبر . لانه يبين أقصى امتداد للإمبراطورية المصرية جنوباً . وهناك

أوراق من البردى ترسم السياسة التى تتبع نحو أهالى الجنوب .

وعثر فى « الرمسوم » على مجموعة من أوراق البردى ، وهى عدة رسائل صادرة من قلعة « سمنه » المصرية فى أقصى الحدود الجنوبية لأملاك « أمنمحت » فرعون مصر ، وموجهة الى « طيبة » عاصمة مصر حينذاك .

وحينما غزا الهكسوس مصر : ظلت فترة فى ظلام تاريخى دامس ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن هؤلاء الهكسوس وصلوا بتجارهم حتى بلاد النوبة .

ويعلق المؤلف على هذا الرأى قائلا : انه بعيد التصديق ، لان الهكسوس أغاروا على مصر من آسيا عبر شبه جزيرة سينا ، وقد ظل أمراء طيبة المصريون يناصبونهم العداء طوال حكمهم لمصر ، وليس من المعقول أن يصل نفوذ الهكسوس الى النوبة ، اذ يعترض سبيلهم أمراء طيبة .

ويقول المؤلف ، نقسلا عن العالم الكبير « برستد » : أن تحتبس الاول قام بحملة لتأديب الكوشيين وصل فيها جنوبا حتى مدينة « مروي » على النيل فى متحنى النوبة ، وكان غرضه من حملته ان يضع حدا نهائيا لغارة أهل الجنوب على مصر .

وينتقل الى عصر الملكة « حتشبسوت » ، والفرعون « تحتبس الثالث » . فيقول : أنهما أقاما حصنا عند « قمة » وأهدياه الى الاله « خنوم » والفرعون « سنوسرت » الثالث الذى رفع الى صفوف الالهة

وقد ازدهرت التجارة بين مصر والنوبة فى عهد « أمنمحتب الثالث » وابنه « أمنمحتب » الرابع أو « اخناتون » ، وزوجته « نفرتيتى » ، وهو الفرعون الذى دعا الى التوحيد وبنى معبداً للشمس (روح آتون) فى النوبة ، ولكن عبادة « آتون » لم تثبت جذورها فى بلاد النوبة ، وظلت عبادة آمون سائدة طوال ألف عام بعد ذلك التاريخ .

وبلغ سلطان الفراعنة فى النوبة أقصى حد فى عهد « رمسيس الثانى » ، وهناك معبد أبو سنبل خير شاهد على ما أقامه الفراعنة من معابد ، فيما بين أسوان وبلاد كوش .

ويحدثنا المؤلف عن « توشكا » وما فيها من مقابر أثرية تمثل مختلف العصور التاريخية . وقد اكتشف العالم الأثرى النمساوى « يونكر » عددا من هذه المقابر ، وعثر بينها على مقبرة « ولد النجومى » حينما كان يقود حملته عام ١٨٨٦ قبل الميلاد لغزو مصر .

ويقول المؤلف : ان النوبيين استطاعوا حكم مصر فى فترة من فترات ضعفها . وان أول من سيطر على مصر العليا هو « حرحور » الذى قدم من النوبة ، بحجة قمع اضطرابات داخلية فى طيبة ، ومن أهم ملوك كوش ، الذين حكموا مصر « طهراق » الذى توج فى طيبة ملكا على مصر وكوش ، عام ٦٨٩ قبل الميلاد .

وقد غزا مصر في عهد « طهراقا » الملك « أسار حارون » ملك آشور ، فوصل الى مدينة منف ودفع « طهراقا » نحو الجنوب . وجاء بعده ابنه آشور بانيبال ، فطرد طهراقا من مصر الى بلاد كوش .
وقد حاول « تانوت آمون » خليفة طهراقا غزو مصر ، ولكن آشور بانيبال هزمه وردّه الى « نباتا » ونصب « إسماتيك الاول » ملكا على مصر العليا ومصر السفلى . وبهزيمة تانوت آمون انتهى حكم الكوشيين لمصر .

وفي عهد البطالسة أمكن بناء كثير من المعابد ، ومن أجملها معبد « فيلة » وبلغت حدود مصر الشلال الثاني . وهاجرت جماعات من المصريين الى النوبة . واستوطنت النوبة عند « مروى » .

ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن حكم الرومان لمصر ، وكيف أنهم وجدوا خصما عنيدا في مملكة كوش وعاصمتها « مروى » فاضطروا الى عقد معاهدة مع الكوشيين .

وينتقل المؤلف الى العهد الاسلامى فيقول : ان المسلمين غزوا النوبة في عهد عمرو بن العاص ، وبلغوا دنقلة العجوز .

وهنا يتحدث عما أظهره المسلمون من تسامح دينى مع ملك النوبة المسيحي وشعبه ، فلم يتعرضوا لكنائسهم بسوء ، وكيف إباحوا لهم الانتقال الى مصر للتجارة . ولم يحاولوا ارغامهم على اعتناق الاسلام ، وجاء في عهد عمرو بن العاص للنوبة مايلى : هذه هى شروطنا ، فان خالفتموها فأتئم البادئون بالعدوان ، والله يحكم بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

ويروى المؤلف بعض القصص التى تثبت ان الفزاة العرب لم يضرروا اية عداوة للمسيحية ولا للمسيحيين ، ويورد نقلا عن المؤرخ أبى صالح ، ان الملك « سليمان » ، ملك النوبة المسيحي ، هجر الملك ولجأ الى صومعة للعبادة في عهد الخليفة المنتصر بالله ، ولما سمع وزير المنتصر بخبره زاره وأحاطه بكل مظاهر التجلية والاحترام ، وأقنعه بالقدوم الى القاهرة . وهناك أعدت له دار خاصة وقامت الدولة على خدمته حتى وافته المنية ، ودفن في دير سان جورج .

ويروى قصة أخرى . . وهى أن الملك « زخاربا » ملك النوبة تأخر بضع سنوات عن دفع الجزية ، وكان ذلك في عهد الخليفة المأمون ، ولما طالبته دولة الخلافة بدفع التأخرات أرسل ابنه « جورج » الى بغداد معتذرا للخليفة بمعجزه عن دفع المال المطلوب . فتأثر الخليفة تأثرا عميقا ونزل عن طلب المال ، وأمر الوالى في مصر بأن يقدم للملك « زخاربا » ما يحتاج اليه من عون . وأن تخصص إحدى دور الوالى لسكنى الأمير « جورج » حتى يتم تعليمه ويعود الى بلاده .

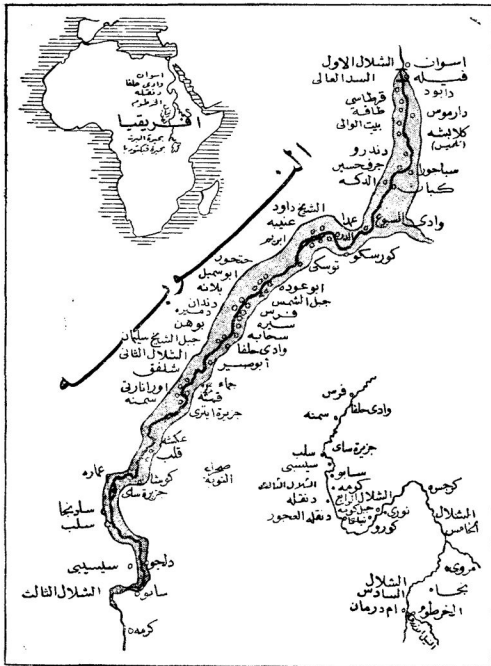
وفي العهد التركى اقيمت القلاع في أسوان وابريم ، ورابط فيها جند من « البشناق » فاندمجوا مع الاهالى . ويقال : ان سلالاتهم لا تزال في النوبة حتى اليوم . أما في عهد محمد على فقد اجتاحت عساكره النوبة في طريقها الى السودان ، ومنذ ذلك الوقت اختفت النوبة في زوايا التاريخ .

كلمة المؤلف

كان من المصادفات الطيبة أن ذهبت الى النوبة كمضو في البعثة المشتركة ، التي أرسلها معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو والمعهد السويسرى بالقاهرة ، للقيام بدراسة مستوفاة لمعد رمسيس الثانى فى « بيت الوالى » واعداد تقرير عن هذه الدراسة ، على أنى انتهزت الفرصة ودرست أيضا منطقة بلاد النوبة وسكانها الحاليين ، وامتدت دراستى فشملت تاريخها منذ أربعة آلاف سنة حتى وقتنا الحاضر •

انى أعتبر النوبة تراثا دوليا يجب علينا جميعا المحافظة عليه •• اذ أن ضياع كنوزها الاثرية مأساة حضارية للعالم أجمع •
وانى لاشكر الظروف التى أتاحت لى المساهمة بنصيب متواضع فى العمل على حفظ كنوز الحضارة الانسانية •

الجزء الأول
النوَب في عَمَدِهَا الْحَاضِرُ



كانت الباخرة تشق طريقها فى نهـ النيل العظيم وبجانبى مهندس مصرى يتطلع فى هدوء وكأنه لا يرى فى النيل الا نهرا كبيرا ينبع من هضبة البحيرات الاستوائية ثم ينحدر الى أرض مصر فيصب ماءه العذب فى البحر الابيض .. أما أنا فقد اعترتنى أحاسيس عجيبـة فيها متعة وفيها غموض وتمنيـت لو أن النيل بقى سرا خفيا فلا يعلم أحد من أين يجىء ..

واقتربنا من خزان أسوان فأخذ مجرى النهر فى الاتساع وارتفعت الصخور على جانبيه ولم يكن بين الماء وحافة الصخر غير شريط ضيق من الخضرة تتأثر على جوانبه القرى البيضاء التى يتوسط كلا منها مسجد بمذنته العالية .. ولما جاوزنا المكان قليلا مد المهندس المصرى يده مشيرا الى القرى الراقدة فى أحضان الصخر ، ثم قال فى زهو ظاهر :

كل هذا سوف يزول لتحل محله بحيرة صناعية واسعة تغير معالم المنطقة ..

ورددت عليه فى أسف :

أليس ذلك شيئا محزنا ؟ ولكن زدنى علما بتلك البحيرة الجديدة ..

- تبدأ هذه البحيرة من السد العالى الذى يقام الآن على مسافة خمسة أميال من خزان أسوان ، وتمتد ثلثمائة ميل عبر النوبة حتى تبلغ السودان .. وسوف تغير البحيرة جغرافية النوبة فلن ترى تلك الصخور بل سوف يحل محلها مسطح واسع من الماء وكأنه بحر لـجى .. تشق عبـابة السفن الكبرى جيئة وذهابا ..

وسألت المهندس : وما مصير سكان النوبة ؟

- سوف نقلهم الى مكان آخر كثير الماء خصب التربة (١) • انهم اليوم فقراء فشريط الخضرة الذى يعيشون عليه لا يزيد عرضه على مائتى ياردة ، فكيف يتوافر لهم الرخاء على هذا الشريط الضيق من الزرع ؟

وفكرت فيما قاله المهندس فوجدته على حق • لقد كان أسلاف النوبيين يعيشون على هذه الارض فى سكينه ورخاء ، أما اليوم ، وقد تناسلوا وتكاثر عددهم ، فلم يعد فى قدرة الارض الوفاء بحاجتهم •

لقد كانت مصر تضيق بسكانها يوم كان عددهم عشرة ملايين ، وضاعف من ضائقة هؤلاء الملايين أن أموالهم كان يسلبها الاتراك وكبش الملاك والاستغلال الاستعماري •

وفى احصاء سنة ١٩٤٧ بلغ عدد سكان مصر تسعة عشر مليوناً ، وفى سنة ١٩٦٠ زادوا على خمسة وعشرين مليوناً ، ولن يجيى عام ١٩٧٠ حتى يكون على أرض الوادى الضيقة فى مصر أكثر من ثلاثين مليوناً ، وعلى الرغم من أن مصر تخلصت من تعسف الاتراك واستغلال الاقطاعيين والاستعمار ، فانها لن تستطيع اطعام ملايينها الكثيرة بهذا القدر من الماء الذى تحصل عليه من النيل فى الوقت الحاضر • ومن ثم لم يصبح أمامها الا أحد حلين : فاما أن يهبط عدد السكان الى خمسة عشر مليوناً ، وهذا حل غير عملي ، واما أن تتخذ من الوسائل ما يكفل الابقاء على الجانب الأكبر من كميات المياه التى تذهب الى البحر سدى ، والتى يبلغ حجمها مائة وثلاثين مليار متر مكعب يمكن الارتفاع بها فى توليد القوى الكهربية للصناعة الى جانب زيادة رقعة الارض الزراعية ، أى ان السد العالى أصبح ضرورة حيوية لمصر ، ولكن بناء السد العالى سيؤدى الى تبديل ضمان بلاد النوبة ، وسيذهب بمخلفات الانسان وآثاره عبر القرون فى

(١) أعدت البولة مشروعاً هاماً لتنجير أهالى بلاد النوبة الى منطقة كوم أمبو حيث تقام ٣٣ قرية تتوسطها عاصمتها • الناصر ، مع المشروعات الأخرى اللازمة للمدينة والعمران تكلفت نحو ١٦ مليوناً من الجنيهات • • وسيسبلخ عدد المهاجرين نحو مائة ألفه نوبى • •

هذه البقعة من الارض ، ففيها تلك المقابر الاثرية والمدن ، والقلاع ، والمعابد الوثنية ، والكنايس المسيحية ، والكهوف التي كان يتعبد فيها القديسون ، وبقايا الحضارة الاسلامية في عهدها الاول ، وكل تلك المخلفات الحضارية مصيرها الى الزوال .

ولكن مما يدعو الى العزاء أن بناء السد العالي سوف يبعث الرخاء والرفاهية الى سكان التربة ، أو بلاد « كوش » وأنهم سوف يستمتعون بالحقول الخضراء الياض على حين تهبط تلك المناظر الاثرية الى الاغوار وتغمرها مياه السد .

ان جنوبي النوبة هي بلاد « كوش » القديمة التي تحدث عنها أسعيا ، ومن المرجح أن السكان فيما قبل عهد الاسرات في مصر ، قد صعدوا في وادي النيل نحو الشمال عن طريق النوبة ، وهؤلاء هم أسلاف الفراعنة ، الذين أقاموا حضارة عظيمة في الشمال ، وشنوا الحروب وفتحوا المسالك التجارية الى افريقية ، أما ملوك « كوش » فقد أخذت قوتهم تزداد حتى استطاعوا ، في احدي فترات تاريخهم ، أن يحكموا مصر ويضيفوا لقب « فرعون مصر » الى ألقابهم الملكية « الكوشية » . ولقد توافد على هذا الاقليم المرتزقة من الاغريق ، حيث نقشوا أسماءهم على تلك الاماكن التي ارتادوها في أقصى الجنوب ، كما أن الجغرافي الاغريقي « سترابون » جال في هذه المنطقة فوق عربة تجرها الثيران في أثناء رحلته لزيادة معبد ايزيس في جزيرة « فيلة » .

وألقيت نظرة على شاطئ النيل الخالي الا من شعيرات ونخلات ، فتذكرت أولئك الذين استوطنوه من قبل وطاب عيشهم فيه وبنوا فوقه لألهتهم معابد ، وأقاموا حضارات ذات معالم ، وخلفوا فيه آثارا خلدها التاريخ ، لقد سطر « الكوشيون » صفحات في قصة حياة الانسان حين كان سكان بريطانيا يجرون الصخور فوق الوديان المقفرة ليقيموا لانفسهم ما يدفع عنهم تقلبات الجو وهجمات الوحوش .

ثم أمد بصري الى الشرق حيث ساحل البحر الاحمر بصخوره

المرجانية ، كنت كأنما أرى سفن الفراعنة تشق عباب الماء فى طريقها الى بلاد بونت (الصومال) أو كأنما أنا اعرابى يرعى غزوات له فى هذا الفضاء القفر ، فما زالت هذه الارض تجتذب اليها من يهاجرون من الجنوب والشرق ، ومن بينهم أولئك القوم المجهولون الذين توافدوا عليها من حيث لا ندرى - بعد ميلاد المسيح بمائتى عام - فسيطروا على المنطقة كلها فترة من الزمن ، ولا تزال بقاياهم حتى اليوم تبعث الحيرة فى نفوس المتقين عن الآثار .

ان الصمت الرهيب يخيم على المكان . والطبيعة كأنها فى سبات عميق ، ولكن هناك السد العالى ، ومن ورائه الخضرة والماء والحياة تنبث مرة أخرى فى المكان المقفر فيمتلئ بالحركة ويزدهر بالامل .. ان النوبة الآن بلد الكهول ومن بلغوا سن الشيخوخة ، أما شبابها فانهم يرحلون الى الشمال حيث يجدون العمل فى القاهرة وفى مدن الدلتا . ولكن لايد من التغير ، ولسوف يبقى النوبى فى بلده بعد بناء السد ليزرع ويمارس التجارة ، ومن يدرى ؟ .. فقد ينقب عن الذهب والرصاص والنحاس فى جوف هذه الارض البكر .

وأود ، قبل أن اختتم هذا الفصل ، أن أشير الى حادث طريف . ففى أثناء جولائى فى منطقة النوبة التقيت بجماعة من أبناء البلد جالسين على شاطئ النهر وبجانبهم انا مملوء بالشاى الاسود . وقد فرحوا بقدمى ، أنا الزائر الغريب . ونهضوا يرحبون بى ويقدمون لى أقذاح الشاى الاسود .. ووثب الى من بينهم رجل مسن نحيل قائلاً : يا سلام ! انى أعرفه حق المعرفة ..

ونظرت اليه وسرعان ما تذكرته .. انه خادمى الامين (ذهب خليل محمود) ومن خلال حديثى معه علمت أنه ادخر بعض المال وعاد ليفتح دكانا فى بلده ..

وقلت له : أين ابنك الصغير يا ذهب ؟ فقال : انه لم يعد صغيرا يا سيدى ، فقد أتم تعليمه وتخرج فى كلية الهندسة وهو الآن مهندس فى السد العالى ..

والآن : لقد غادرنا أسوان وأصبحنا أمام خزانها الضخم ، الذى يشق طريقه بين صخور الجرانيت وكأنها أفيال ضخمة تلفحها حرارة النار فوق الشلال العتيق •

هنا •• فى أسوان •• سجل الفراغة ، ولانهم ، قصص مغامراتهم وحروبهم وتجارتهم مع سكان الجنوب ، وهنا تشر على أولى صفحات التاريخ وقد ظلت تقاوم قسوة الطبيعة وعاديات الزمن طوال أربعين قرنا •

ان اسوان هى وجهة مصر الطبيعية من الجنوب ، ولم يستطع الفراغة أن يمدوا حدودهم جنوبى أسوان الا بشق الانفس ، اذ توجد منطقة الشلالات ، واذا كان هؤلاء الفراغة قد استطاعوا اجتياز الشلال الاول ، فان هناك الشلال الثانى ، عند وادى حلفا ، وهو أشد صعوبة من الشلال الاول ، ولولا ما كان هناك من مغريات كبيرة من ذهب وعاج وأبنوس ورقيق ، ما غامر المصريون القدماء بالتوغل نحو الجنوب ، وما بنوا القلاع والحصون ، وما أقاموا المراكز التجارية حتى منطقة الشلال الرابع •

وبلاد النوبة هى المنطقة الممتدة من وادى حلفا الى شمالى الخرطوم وكلمة « النوبة » تسمية جغرافية ، ولا تحمل أى معنى سياسى ، وهى مقسمة بين مصر والسودان • ولقد كان الاغريق يطلقون على كل ما يقع جنوبى أسوان اسم « اثيوبيا » أى بلاد أصحاب البشرة السوداء • ولذلك أطلق علماء الآثار المصرية القدامى على غزاة مصر من الجنوب اسم « الاسرة الاثيوبية » والحقيقة أن هؤلاء الغزاة ليسوا الا ملوك « كوش » أو النوبة •

ومضت بنا السفينة ولم تجد صعوبة فى اجتياز الشلال الاول ، فالأهوسة والعيون تساعد على أن يرتفع الماء الى نحو أربعمائة قدم « فوق سطح البحر » وبذلك يتساوى منسوب المياه أمام الخزان وخلفه ، وتستطيع السفينة أن تمر بسلام • ولقد عجبت لهذا القدر الهائل من الماء

الذى يحجزه خزان أسوان ، ولكن زال عجبى حين قال لى المهندس الذى رافقنى : ان السد العالى سوف يرفع الماء الى ستمائة قدم « فوق سطح البحر » وهنا أغمضت عينى وتصورت كيف أن ٤٦٠٠ مليون قدم مكعب من الماء سوف تملو أرض مصر ، وأحسست بأن الارض تكاد تهتز تحت قدمى .

وعادت بى الذاكرة الى « سترابون » الجغرافى الاغريقى حين زار هذه المنطقة مع صديقه الرومانى « ايلبوس جالوس » عام ٢٥ قبل الميلاد ، حيث يصف منطقة الشلال ، وكيف استطاع الملاح اجتيازها فى جراءة ومهارة . ولقد ظل النوبيون يقومون بمغامراتهم هذه فى اجتياز الشلال طوال ألفى عام حتى تم بناء الخزان عام ١٩٠٢ .

على أن الرحالة الانجليزية « اميليا ادواردز » قد زارت المنطقة عام ١٨٧٤ ووصفت كيف يتم الانتقال فوق الشلال ، وكان وصفها رائعا حقا تقول أميليا :

جاءت فئة من النوبيين الاشداء ووقفوا صفا فى انتظار الاوامر ببدء العمل، وحين أصدر «شيخ الخزان» أمره أخذ العمال يهثون لناكل وسائل الراحة وبدأ بعد ذلك استعمال المجاديف حتى عبرنا «الباب الكبير» وهنا شاهدنا القارب ينحدر بنا وكأنه يغوص فى لجة الماء ، وما هى الا وثبة أعقبته رجة ثم دفعة الى الامام حتى وجدنا أنفسنا فوق سطح مستو من الماء ومن حولنا النهر يهدر ويزبد انها مهارة فى فن الملاحة تتضاءل معها مهارة البحارة الانجليز ؟

ان اميليا بريطانية ثرية رحلت الى ايطاليا طلبا للشمس والدفء ، ولم تعجبها شمس ايطاليا أو دفؤها ، فاندردت جنوبا الى مصر ومنها الى النوبة وفيها (فى النوبة) اعجبت بسحر الطبيعة وبهرتها جهود الانسان ، فكرست بقية حياتها لزيارة المنطقة وللدراسة والتنقيب عن الآثار . ومن أشهر مؤلفاتها « ألف ميل الى أعلى النيل » وهو لايزال حجة يرجع علماء الآثار المصرية اليه ، واليه يرجع الفضل فى انشاء صندوق التنقيب عن الآثار المصرية . عام ١٨٨٢ ، وكانت هى أول أمين للصندوق . ولا يزال هذا

الصندوق قائما تحت اسم « جمعية التنقيب عن الآثار المصرية » ويشرف على حفائر هذه الجمعية فى جنوبى النوبة البروفيسور « ولتر ايمرى » ، كما أنه يعمل على صيانة آثار النوبة بعد ان تضرر المنطقة البحيرة التى سوف يخلفها السد العالى (١) . وقبل وفاة أميليا اوصت بأن تخصص كتبها ومكتبتها ومجموعاتها الأثرية وأموالها لإنشاء كرسى لدراسة الآثار المصرية فى جامعة لندن ، وكان أول من شغل هذا الكرسى المصلاحة « فلندرز بترى » وظل يشغل هذا الكرسى حتى وفاته عام ١٩٣٣ .

وقمة الخزان على مقربة من جزيرة « فيلة » المقدسة . وحين مررنا بها لم يظهر منها الا القليل ، لان التعلية الاولى لخزان اسوان عام ١٩٠٧ غطت الجانب الاكبر منها . وكان التصميم الاول للخزان أن يبلغ ارتفاع الماء المقدار الذى يبلغه بعد التعلية ولكن اصوات الاحتجاج ارتفعت من كل جانب ، وكان اصحاب هذه الاصوات هم علماء الآثار المصرية ومحبو الآثار ، فاقصر ارتفاع الخزان على أن يحجز ٧٢ قدما من الماء بدلا من مائة قدم . . . وقد علق ونستون تشرشل على ذلك فى سخرية لاذعة قائلا: « ان هذا القربان » الذى يمثل فى ١٥٠٠ مليون قدم مكعب من الماء وهو الذى قدمه حكماء الغرب الى الالهة « هاتور » هو أقى انواع القربان وأشدها حماقة . اذ كيف تناضل الدولة ويشقى الشعب فى سبيل ارضاء حفنة من العلماء وفئة من السائحين يتهجون بنقش اسمائهم فوق الصخور ؟ . .

ومما له دلالة خاصة ويتفق مع روح العصر أن أحدا من العلماء لم يرفع صوته بالاحتجاج على بناء السد العالى ، على الرغم من أن بناءه يهدد بالفناء آثارا أكبر قيمة من معبد فيلة . ولقد أصبح علماء اليوم اوسع أفقا وأكثر تقديرا للحقائق ، فهم يسعون الى انقاذ ما يمكن انقاذه من هذه الآثار ، وتسجيل ما يمكن نقله منها ، والتيقن من أن كل أعمال التنقيب قد تمت قبل الشروع فى بناء السد العالى فى النوبة السفلى .

(١) اعد مشروع عالمى كبير لانقاذ آثار النوبة، وستساهم فيه منظمة اليونسكو ومعظم دول العالم ، وقد بدأ تسجيل هذه الآثار ، قبل نقلها أو رفعها .

وحين شرعت الحكومة المصرية فى التعليق الثانية لخران أسوان عام ١٩٢٩ كان البروفيسور « ايمرى » قد قام بمسح المنطقة كلها من الناحية الانثريه قبل ان تتمر المياه المنطقة حتى « أدندان » عند حدود السودان . وقد كان للعمل الذى قام به « ايمرى » ومعاونوه فضل كبير فى العثور على مقابر ملوك لشعب مجهول ، وكان أهم هذه الحفائر ما عثر عليه فى بلانة وسنعود للبحث فى هذا الموضوع مرة أخرى •

ولما وصلنا « فيلة » وجدنا أن ماء النهر قد غمر معظمها وغطى تلك الانثية التاريخية المشهورة ، ولكن المنظر الطبيعى العام من حولها كان رائعا وجذابا ، فالشلال ، والنهر ، والصحراء ، والجبال المحيطة بالمكان كأنها أسوار عالية ، والجزيرة المقدسة بثروتها الضخمة من الآثار ، والحفائر والزخارف والنقوش ، التى كان يد الفنان قد رسمتها منذ لحظات ، والاعمدة ، والابهاء ، كل ذلك يبعث فى المكان لونا فريدا من الروعة والجلال •

ان التاريخ يحدثنا عن « فيلة » وكيف أن قدماء المصريين كانوا يقسمون « بذلك الذى يرقد فى فيلة » ، والسبب فى ذلك أن الجزيرة اشتهرت بأنها تضم رفات « أوزيريس » وهذا ما أضفى عليها القداسة • ولكن شهرة فيلة ، باعتبارها المثوة الأخير ، « لاوزيريس » قد زادت بعد اضمحلال شهرة « أبيدوس » وهذه كانت قد اشتهرت منذ القدم بأنها مقبرة الاله « أوزيريس » ومع أننا لانعلم متى نقل الرفات من « أبيدوس » الى فيلة أو الظروف التى تم فيها ، يبدو أن عبادة « أوزيريس » و « ايزيس » قد أصابتها عوامل سياسية ، وأن انتقال الآلهة من « أبيدوس » الى فيلة جاء فى وقت متأخر ، ويحتمل أن يكون ذلك فى نحو سنة ٥٠ قبل الميلاد ، أى فى الفترة التى بين زيارة المؤرخ « هيرودوت » والمؤرخ « سترابون » لهذه المنطقة « فهيرودوت » لم يرو فى قصته شيئا عن « فيلة » وكذلك لم يرد فيما ذكره « سترابون » عن « أبيدوس » الا انها قرية صغيرة وكان ذلك فى نحو عام ٢٥ قبل الميلاد •

ومن المؤكد ان « فيلة » لم تظهر فى سجلات التاريخ الا فى وقت

متأخر ، وكان أول أثر فيها مذبح « لطرارة » أحد ملوك كوش (التى يطلق على ملوكها الاسرة الاثيوبية) .

ويذكر التاريخ أن « طهراقية » توج فرعوناً على مصر فى تانيس (صان) (١) باقليم الدلتا فى نحو عام ٦٨٩ قبل الميلاد ، ولم تكن « فيلة » قبل ذلك العهد ذات أهمية تاريخية ، ولم تأخذ مكانها فى التاريخ الا بعد أن انتقلت اليها عبادة « أوزيريس » و « ايزيس » وبعد أن اتجه فراعنة مصر من البطالمة وفى العهد الرومانى ، الى بناء المعابد الجميلة فيها ، وكذلك يبدو أن اكتشاف الذهب فى وادى العلاقى ، قرب الجزيرة ، قد زاد من شهرتها فى ذلك الحين .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت « فيلة » مركزاً للمعهد المقدس واصبحت كعبة يحج اليها المصريون والنوبيون على السواء .

وفى احدى القاعات التى غمرتها مياه النيل ترقد جثة « أوزيريس » ومن حول الجثة أدوات التحنيط ورموز البعث الخاصة بهذا الاله البطل ، الذى قال عنه الاثرى المصرى « ماريت » : ان « أوزيريس » هو رمز للخير وهو الذى يتكفل بانقاذ الارواح من الفناء المطلق .. وهو وسط بين الانسان والاله .. وهو منقذ البشرية .

وهناك أمل فى انقاذ « فيلة » (٢) وآثارها ، ذلك أن مهندسا مصرياً اسمه (عثمان رستم) قد أعد تصميمًا للمحافظة على الجزيرة بانشاء سلسلة من السدود تفصل بين (فيلة) وبين الجزر المجاورة ، بحيث تظل هذه الجزيرة ومعابدها وسط بحيرة صغيرة خاصة بها تحت مستوى مياه خزان أسوان . وقد كان مشروع رستم موضع اهتمام المهندسين

(١) بلدة « صان الحجر » بمركز الحسينية بمحافظة الشرقية ، وما زال بها حتى الآن بعض آثار المعابد الفرعونية .
(٢) فيلة : جزيرة صغيرة يبلغ طولها ميلاً وثلاث الميل ، وهى فى منتصف مجرى النيل أمام فندق « كاناراكت » بأسوان . وبها معابد اسسها تحتمس الثالث وتحتتمس الرابع ، ورسميس الثانى ، وقد نجم عن تعليمه خزان أسوان أن أصبحت المياه عند الفيضان تغمر الجزيرة بمعابدها تقريباً .

الهولنديين وقدرت تكاليفه بنحو ٢١٢٢ر٠٠٠ جنيه استرليني ولكن لن يبدأ تنفيذ المشروع الا بعد عام ١٩٦٨ عندما يتم بناء السد العالى . وهكذا تبرز « فيلة » بثروتها التاريخية مرة أخرى الى الوجود .

ولقد قال السير « وليام ويلكوكس » مدير الخزانات فى الحكومة المصرية فى مطلع القرن العشرين : ان تجدد مياه الفيضان يكسب الانار المصرية قوة ومناعة ، ولكن الخطر الذى يتهدها هو تلك الرواسب الملحية ، نتيجة لتسرب الماء فى مسام الصخر .

وهذه مشكلة كبيرة أمام الحكومة المصرية للمحافظة على آثار الأقصر ، اذ ظهرت على بعض المقابر وخصوصا فى (وادى الملكات) (١) مظاهر زوال النقوش والزخارف .

وعلى الرغم من أن معابد (فيلة) قد غمرتها المياه فان ما عليها من زخارف ونقوش ظلت باقية كثروة علمية ، فقد استطاع الانرى النمساوى العلامة (يونكر) أن ينشر عنها مؤلفا قيما فى العهد الحديث ، ولكن هناك نقطة ضعف فى الجهد العلمى الذى قام به « يونكر » هو أنه منقول عن صور فوتوغرافية ، اذ أنه لم تقم بعثة أثرية بتسجيل هذه النفائس نقلا عن أصولها فى « فيلة » . ولكن مركز الوثائق (٢) فى القاهرة استطاع أخيرا التقاط صور فوتوغرافية كاملة لآثار « فيلة » كما أن بعثة معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو ، التى اعمل بها ، قد استطاعت تصوير معبد بأكمله .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الفيضان والرياح الشديدة التى تثير معها رمال الصحراء ، وكذلك تعاقب الحر اللافح والبرد القارس فى

(١) وادى الملكات : فى الطرف الجنوبي الاقصى لآثار ومقابر طيبة وبه نحو ٧٠ مقبرة للملكات والاميرات والامراء الاقدمين من الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين . ومن أهم المقابر مقبرة الملكة نفرتيحتى ، ومقبرة الملكة تيمتى .

(٢) مركز الوثائق : يقصد المؤلف مركز تسجيل الآثار الذى انشىء بالقانون رقم ١٨٤ لسنة ١٩٥٦ فى عهد الثورة . وهدفه تسجيل الآثار المصرية ودراسة الفن والتاريخ الهندسى الذى تعبر عنه هذه الآثار .

هذا الجوّ القارى قد بعثت عوامل الفناء التدريجى الى الآثار المصرية ، وهذا - وان خفى على الزائر العابر ، لا يخفى علينا نحن الذين أمضينا وقتنا طويلا بين هذه الآثار •

ولقد استطاعت بعثتنا التقاط آخر صورة لمعبد رمسيس الثالث فى مدينة « حابو » قرب الأقصر قبل انتقالها الى النوبة • ولكن كثيرا من الآثار المصرية لم تسجل تسجيلا كاملا ، حتى انه فى وادى الملوك الذى يزوره السائحون كل عام لا يزال هناك نقص كبير فى الاعمال العلمية والفنية • انه لاشئ أعظم فى عصرنا الحاضر من الاحتفاظ بتلك الذخيرة الكبرى من العلم والفن ، ولكنى أقول فى أسف : ان بعثتنا هى الهيئة العلمية الاجنبية الوحيدة التى تقوم بتسجيل تلك الآثار فى الوقت الحاضر •

ولتعد الى حديثنا عن رحلتنا الى النوبة • • لقد انتقلنا من « فيلة » ومعايدها الى مشهد جديد ، فقد سارت بنا سفينتنا قليلا نحو الجنوب ووجدنا أنفسنا أمام بقعة رسمت عليها خطوط جيرية بيض على الشواطىء الصخرية ، وقيل لنا : ان هذا هو موضع السد العالى • لقد ارتفعت الصخور فى هذا المكان قليلا ، وضاق مجرى النهر قليلا أيضا • ولكن اذا نظرت نحو باب كلاشة (١) رأيت الصخور تزداد ارتفاعا ومجرى النهر يزداد ضيقا ، وقال لى مرافقى المهندس المصرى : ان اختيار هذا المكان لاقامة السد لا يرجع الى ارتفاع الصخور وضيق مجرى النهر فحسب ، وانما يرجع أيضا لطبيعة قاع النهر نفسه •

ان أهم شئ فى بناء السدود ليس اقامة السد نفسه ، اذ أن الاعمال التمهيدية أهم بكثير من بناء السد ، لقد شاهدنا مهندسين والآت وماكينات تهدر فى حين يبدو لك أنها لا تعمل شيئا • وهناك اثنان من القوارب الكبيرة « صنادل » ركبت عليهما آلات وأجهزة كثيرة وهما رابضان فى المجرى وكأنهما لا يستخدمان فى أى غرض • ان هذا المظهر الساكن

(١) كلاشة : أحد المعابد الشهيرة فى بلاد النوبة ، قد تم نقل أجزائه من مكانها الاول الى أسوان منذ أكثر من عام •

يخفى وراءه حقيقة كبيرة وهى ان التمهيد لبناء السدود أهم بكثير من عملية بنائها ، وهذا ما يحدث الان فى مشروع السد العالى ••

وفى هذا الجو عاد بى الخيال الى القاهرة وغيرها حيث يتهاشم مروجو الاشاعات الكاذبة بأن السد العالى لم يتقدم كثيرا منذ أن قام الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٩ من يناير ١٩٦٠ بتفجير عشرة أطنان من الديناميت ايدانا ببدء الحفر وشق قناة التحويل ، وهى الاعمال التمهيدية التى لابد منها قبل الشروع فى بناء السد • ولقد انتقلت تلك الاشاعات المغرضة الى الصحافة البريطانية والامريكية ، وذلك بدافع الكيد للنظام القائم فى مصر ورجاله ، ولكن من الخير لنا ألا نلقى بالا الى تلك الاشاعات الهدامة وأن نرقب تطور المشروع •

ان السوفيت ، الذين مولوا المشروع وزودوه بالمعونة الفنية ، لهم شهرة كبيرة فى بناء السدود ، وقد أثبتوا فى العهد الحديث كفاءتهم فى ميادين كثيرة ، ومهما يكن رأينا فى نظامهم السياسى يجب الا نكون من الحماقة والغباء بحيث تصور أن السوفيت يسمحون لانفسهم بالفشل فى مشروع تتجه اليه انظار العالم اجمع • وهؤلاء القوم ، الذين استطاعوا أن يسحروا القضاء ، لن يعجزوا عن بناء السد العالى ، الا أنه عمل يتضائل الى جانب ما حققوه من انتصارات علمية وفنية ، واستطيع أن أؤكد أن السد العالى سوف يقام ، وسوف يتم بناؤه قبل عام ١٩٧٠ وهو الموعد المحدد لالتهاء منه ولكن هناك شرط واحد هو استمرار الاستقرار السياسى فى مصر •

ان المقرر أن تتم المرحلة الاولى فى بناء السد العالى عام ١٩٦٤ وفى خلال هذه المرحلة سيحول المجرى عن طريق القناة وتبنى سدود فرعية وخلفية • وحين تتم هذه المرحلة يبدأ السد الى حد ما ، فى اداء وظيفته ، بحيث يستطيع كما هو مقرر ، رى مليون فدان من الاراضى المستصلحة ، بالإضافة الى تحويل ٧٠٠ الف فدان فى الوجه القبلى من نظام رى الحياض الى نظام الرى الدائم ، وحين يتم ذلك فان الدخل القومى فى مصر سوف يرتفع بنسبة ٣٥ ٪ •

مشروع
تهجير واسكان اهل بلاد النوبة
بكموم امبو



ابوحنبلہ

الجنينة والشباب

امیم و المجزیه

بونا

توشکی شرق و غرب
ابوسنبل اول و ثانی

قصص

المضيق

العلافي وفرشه

فورت اولیہ

فقيرة ثانياً وثالثاً

سنگاپور - اسٹوڈنٹ

كوم أميو

اوپن اول وٹائی

الامنه ثانی وثالث ○

سلامت اول

کلاپشہ
ماہیہ ماراواو
جرف حسین

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کشتنه غریب

الديكة
كشتمه شوق

الامير كاي

W

اصطلاحات

منطقة الكونوز

منطقة العرب

منطقة النوبيين

وموقع السد العالى يبعد مسافة أربعة أميال^{ميال} عن خزان اسوان الحالى ، وسوف يرتفع الى ٥٨٦ قدما ، فوق سطح البحر ، ويبلغ طوله مليون ، أى أنه يعادل طول خزان اسوان بمقدار $1 \frac{3}{4}$ مرة ، أما ارتفاعه فيبلغ ٣٦٤ قدما ، فى حين أن ارتفاع خزان اسوان ١٢٥ قدما فقط . وسوف يخزن السد العالى من الماء ما يعادل ٢٥ مرة من طاقة خزان أسوان ، وذلك فى بحيرة طولها ٣٠٠ ميل تمتد حتى « كوشا » فى النوبة العليا بالسودان . أما كمية المياه التى تخزنها البحيرة فسوف تبلغ ٤٦٠٠ مليون قدم مكعب .

اما تكاليف السد نفسه فهى ١١١٥ مليون جنيه مصرى ، يضاف اليها ١٤٩٥ مليون جنيه لاقامة محطات توليد القوى وتوزيع الكهرباء على بلاد مصر كلها ، ورى مليون فدان أخرى من الارض بجانب ما يحول من نظام رى الحياض الى نظام الرى الدائم وانشاء الطرق وغيرها . يضاف الى ذلك كله عشرة ملايين جنيه تعويضات لتهجير سكان النوبة ، وبذلك تكون جملة التكاليف ٢٧١ مليون جنيه والاستثمار الفردى فى الاراضى الجديدة يقدر بنحو ٩٦ مليون جنيه .

ليس هذا المبلغ كبيرا اذا قيس بعمل انشائى لزيادة النماء والرخاء ولننظر الى ما تتكلفه الحروب مثلا ، وهى أعمال تخريبية نجد أن أية حرب صغيرة جدا تكلف ٣٦٧ مليون جنيه بأقل تقدير ، أما ما يطرأ على الزراعة من تحسن وما يتم من مشروعات التصنيع نتيجة لبناء السد فسوف تحصل منه الحكومة المصرية كل سنة على نحو ٢٢ مليون جنيه، وذلك من الضرائب المباشرة وحدها ، كما أن الدخل القومى فى مصر سوف يزيد بمقدار ٢٥٤ مليون جنيه فى السنة ، وهكذا يقدر المصريون أن السد سوف يغطى نفقاته فى السنوات القليلة الاولى من انشائه .

ان المصدر الاستثمارى فى مشروع السد هو الاتحاد السوفيتى ، ولقد بعثت العوامل السياسة حيرة كبيرة فى نفسى ، وتساءلت : لماذا تخلفت الدول الغربية عن الحصول على هذه الصفقة وما يحققه ذلك من فائدة مادية وسمعة طيبة ونفوذ فى قلب الشرق الاوسط ؟ ..

لقد أذاعت الجمهورية العربية المتحدة على العالم أجمع أنها حاولت عام ١٩٥٦ تمويل مشروع السد فلم تستطع ، لان بعض الدول استخدمت نفوذها لدى البنك الدولي ، كى يمتنع عن منح مصر قرضا لتنفيذ المرحلة الاولى من المشروع . وبعد ذلك اعلنت الجمهورية العربية المتحدة أنها على استعداد لقبول قرض ، بشروط معقولة من أية جهة ، بحيث لا تمس الشروط سيادتها أو استقلالها . وفى أكتوبر سنة ١٩٥٨ تلقت موافقة من الاتحاد السوفيتى بقبول هذه الشروط .

وإذا كانت بعض هذه الدول تتهم (ناصر) الان بأنه تجارى فى اتجاهه نحو الكتلة الشرقية فان اللوم انما يقع على تلك الدول نفسها ، اذ كان فى استطاعتها أن تقوم بما يقصوم به الاتحاد السوفيتى الآن . وكان عليها أن تدرك أن مشروع السد العالى ليس نزوة وطنية ، ولكنه ضرورة حيوية لمصر .

ولا ننسى ان الجمهورية العربية لا تقبل الشيوعية كأسلوب للحياة ، بل ان من الخطر على أى انسان أن يكون شيعيا فى الجمهورية العربية المتحدة . ولكن كان لا بد لتنفيذ المشروع من الحصول على المال من أية ناحية . لقد كان السوفيت يتحينون الفرصة ، ومن ثم قدما لهم الصداقة والنفوذ فى افريقية لقمة سائغة .

ان البحيرة التى يكونها السد العالى سوف تحجز من المياه أربعة أضعاف ما يحجزه سد (هوفر) على نهر كلورادو ، وهو أكبر السدود المنشأة على الصخر فى أمريكا . ولو أمكن تفرغ مياه ثلاثة من أكبر سدود العالم المنشأة على الصخر فى بحيرة السد العالى فلن تملأ الا نصفها ، كما أن الطاقة الكهربائية التى تنتجها هذه السدود الثلاثة لن تزيد على ثلث ما ينتجه السد العالى وحده ، وهذه السدود الثلاثة هى : سد « ديفز » على نهر كلورادو ، وسد (مايورو) فى اليابان وسد (مسيرونسو) فى فرنسا .

غير أننى مازلت أذكر أن هذه البحيرة الهائلة سوف تغمر جانبها

كثيرا من المناطق الاثرية ، ومن ثم يجب أن تفحص هذه الآثار فحفا
دقيقا قبل أن تغمر المياه تلك المنطقة ، وبذلك يمكننا أن نستكمل قصة
مصر القديمة •

ولقد حصلت بعثة من جامعة كولومبيا على منحة مالية قدرها ٣٩
ألف دولار ، للقيام بدراسة شاملة لآثار العصر الحجري في النوبة العليا
والسفلى ، كما أن عددا من علماء التاريخ القديم وعلماء الآثار من مختلف
بلاد العالم تطوعوا للمساهمة في هذه الدراسة بجهودهم الخاصة ، وليس
من المتوقع أن نجد في النوبة وسيلة لحل كل ما استعصى من مشكلات
التاريخ ، إذ أنها كانت منطقة لعبور الشعوب حين أخذت في الارتحال
منذ الأزمنة البعيدة • وقد ثبت أن النوبيين هم اجداد المصريين القدماء وأن
الآثار التي اكتشفت في النوبة تلقي ضوا على تاريخ الأسرات المصرية
وتجارة الفراعنة وغزواتهم وهزائمهم ، وكذلك أنبأتنا النوبة كيف أن
المسيحية زحفت على طول وادي النيل حتى امتدت من البحر الأبيض
الى اثيوبيا وكيف أن موجات الغزاة العرب وقد تدفقوا على أفريقية
وعبروا البحر الى الاندلس لم يتوقف زحفها على بقية أوروبا الا بعد هزيمة
العرب في بواتيه (بلاط الشهداء) على يد « شارل مارتل » ؟ وكيف أن
بعض فرق الغزاة العرب قد انسلخت عن القوة الاصلية واتجهت الى
النوبة وقضت على المسيحية هناك ، ولم يبق من آثارها الا اثيوبيا وبعض
جماعات متناثرة في منحى النيل بين حلفا والخرطوم •

ان مياه السد - والحالة هذه - سوف تغمر آثار العصر الحجري في
النوبة ، وكذلك ما خطته شعوب هذا العصر من نقوش - على الصخر ،
كما أنها ستغطي الحصون التي أقامها فراعنة مصر ، منذ أربعة آلاف
سنة ، على الصخر في فن استراتيجي يدل على وعى عسكري كبير ،
وذلك لكي تحكم ممرات النهر ومراكز التجارة بين مصر والسودان الى
أفريقية الاستوائية ، وليس من المستطاع صيانة هذا التراث الاثرى
العظيم الا اذا تجمعت لذلك جهود الرجال وتوافر المال والوقت •

وما قيل عن هذه الآثار يمكن أن يقال عن معابد النوبة في مصر في

عصر الدولة الفرعونية الحديثة ، ومن أهمها ، جميعا معبد ابو سنبل ،
وقد أعد مشروع هندسي ضخم لانقاذ هذا المعبد ، وذلك بانتزاع
الصخور المحيطة به ثم رفعه الى نحو مائتى قدم ، فلا تغمره مياه التعلية .
انه معبد ضخم تحت أبهاؤه الفسيحة الى مسافة ١٨٠ قدما فى قلب الجبل
أما تمثال رمسيس الثانى القائم أمام وجهته فيرتفع الى ٧٢ قدما .

ويعادل وزن كتلة الصخر المطلوب رفعها - ثلاثا من أكبر بواخر
العالم ، وتبلغ نفقات رفع هذه الصخور ١٨ مليون جنيه .

وكذلك تهدد مياه التعلية المعابد الاغريقية والرومانية والكنائس
التي بنيت فى أوائل العصر المسيحى وعليها صور القديسين ، وتخفى
آثار الاديرة ذات الحصون التي كان يحتوى فيها المسيحيون الاوائل من
هجمات الوثنيين ، وذلك الى جانب عدد لا يحصى من المقابر والاضرحة
التي تمثل كل العصور التي مرت بها النوبة ، أى منذ العصر الحجري
حتى العصر الاسلامى ثم الى وقتنا الحاضر .

ان كل هذه الآثار - وان لم يبد بعضها جميلا أو ذا قيمة فنية -
سجل تاريخي حافل كما أوضحنا ، ومن حسن الحظ أن جهودا طيبة
قد بذلت لتسجيلها قبل ان تغمرها المياه ، ويرجع الفضل فى ذلك الى
الجمهورية العربية المتحدة وحكومة السودان .

ولقد أدركت الجمهورية العربية المتحدة أن انقاذ آثار النوبة
وكنوزها التاريخية سوف يكلفها أكثر مما تطيق ، ومن ثم طلبت المعونة
من منظمة اليونسكو ، واستجابت المنظمة وبدأت حملة عالمية فى ٨ من
مارس ١٩٦٠ ، اذ وجه « فيتورينو فيرونيز » المدير العام لليونسكو الى
دول العالم النداء التالى :

« ان تراثا حضاريا من أنفس ما صنعت يد الانسان على وجه
البسطة ، يوشك أن يختفى ... وليس من السهل تحديد الاختيار بين
المحافظة على هذا التراث وبين رفاهية شعب فى ظل احدى حضارات

الاسنان الكبرى ، كما أنه ليس من السهل الاختيار بين المصائد
والمحصولات الزراعية ...

وان هذه الآثار ليست ملكا لبلد واحد أو لعدد من البلاد ، وانما
هى ملك للعالم كله ، اذ هى تراث مشترك يحمل فى ثناياه رسالة مقراط
وسمفونيات بيتهوفن • هى كنوز عالمية يجب ان نحميها ، وان حمايتها
فى حاجة الى جهود عالمية •

وقال مدير اليونسكو ان هذا النداء انما هو دعوة الى مختلف بلاد
العالم للمساهمة فى ذلك العمل بأموالها وخبرائها الفنين ، وليست
اليونسكو الا وسيطا بين هذه البلاد وبين الجمهورية العربية المتحدة
والسودان •

ولقد استجاب العالم لنداء اليونسكو ، ولكننا لاندرى هل استجاب
بالقدر الذى تتطلبه المحافظة على هذه الآثار أم لا ؟ ان انقاذ معابد فيلة وأبو
سمبل وحدهما يتكلف مبالغ طائلة من المال ، وهذا لا يتوافر بترعات
الافراد أو معاهد الآثار ، وانما يجب ان تشترك الحكومات فى ذلك
اشتركا جديا • وحتى كتابة هذه السطور لم يستجب للنداء الا عدد قليل
من الحكومات ، اذ قدمت حكومات بلجيكا والبرازيل ويوغوسلافيا
وباكستان وكمبوديا مبالغ للمشروع ، أما حكومة الجمهورية العربية
المتحدة فقد خصصت فى ميزانيتها لصيانة اثار النوبة ثلاثة ملايين ونصف
مليون من الجنيهات موزعة على سبع سنوات تبدأ من سنة ١٩٦٦ وتنتهى
فى سنة ١٩٦٧ ، كذلك طلب الرئيس الأمريكى كيندى من الكونجرس
الموافقة على اعتماد عشرة ملايين دولار لهذا الغرض •

ولنعد الى الحديث عن رحلتنا : لقد وصلنا « بيت الوالى » بعد
الظهر ، وهناك وجدنا أنفسنا أمام صخر اقتطعت بعض أجزائه لبناء معبد
كلايشة ، وهو من اكبر المعابد النوبية ، ولقد أعجبت كثيرا حينما شاهدت
هذا المعبد وكان فى يدي كتاب العالم الاثرى شامبلون « رسائل مصرية
ونوبية » ان هذا المعبد - وان كان يمثل فترة اضطراب الفن المصرى -

ذو قيمة أثرية عظيمة • • ولقد أرسلت حكومة ألمانيا الاتحادية بعثة لفك أجزاء المعبد وإعادة تركيبه على مكان قريب من موقع السد الجديد •

وأود ، قبل ان اختتم الحديث عن النوبة المعاصرة ، أن أشير الى ما يمتاز به أهل هذه المنطقة من نظافة طبيعية ليس فيها تكلف ولا ادعاء • وأذكر أن العلامة « ايمرى » قد علل نظافة أهل النوبة بأنهم اعتادوها بسبب ممارستهم الخدمة فى بيوت الاسر المصرية الكبيرة ، ولكننى اختلف معه فى هذا التعليل ، ذلك أن الاسر المصرية الكبيرة انما تستخدم النوبيين لما امتازوا به من نظافة ، فنظافة النوبيين من خصائصهم العصرية التى تميزهم عن غيرهم من العناصر المجاورة •

الجزء الثاني
النوبة في عروها الماضي

آثار بلاد النوبة



نقطة مركز تسجيل الوثائق

ان النوبة - كمصر - طرأت عليها تغيرات كبيرة فى الاعوام المائة
لاخيرة ، فقد كان عهدها السابق عهد طفيان تركى يمثل فى حكم محمد
بلى وأسرته ، ولقد كان ذلك الحكم جائرا • أما العهد الحاضر فهو رخاء
بسعادة وان كان يشوب النوبة التعلق بأمور الدنيا •

لقد كتبت الرحالة الانجليزية « أميليا ادواردز » عام ١٨٧٤ عن
أهل النوبة ، فقالت : انهم لا يزالون « همجا فى قرارة نفوسهم » ولكنى
لم أشاهد على ذلك أى دليل • حقيقة انه اكتشف رقصات همجية مرسومة
على جدران المقابر المصرية القديمة تمثل تشيع جنازة ، وتزعم « أميليا
ادواردز » أنها « اثيوبية » أى « كوشية » ، ولكن الملابس والحركات
المرسومة كلها تدل على أنها رقصات جنائزية فرعونية قديمة •

ولقد شاهدت ابنة صياد نوبى ترقص أمام والديها فى ضوء القمر
لتسليتهما ، فكانت تتلوى فى مرونة كالافى ، مما ذكرنى بأصلها
الافريقى ، ولكنها من غير شك رقصه لا تخلو من سحر وفتنة •

كذلك كتب الرحالة « سانت جون » عام ١٨٥٨ يقول : ان المرأة
النوبية حين تطيب تمسح شعرها كثيرا بزيت الخروج أو الدهن ، فاذا
ما سطعت عليها الشمس ذاب وتساقط وخلف رائحة كريهة ، ولكنى
رأيت غير ذلك ، فالمرأة النوبية تلبس كشقيقتها الريفية المصرية ، وهى
تغطى جسمها من الرأس الى القدم ، ونساء النوبة خجولات لا يقتربن
من الغرب ، وقد يبدو ذلك على خلاف ما كتبه « جادزبى » عام ١٨٤٦
اذ قال : ان المرأة النوبية لا تمنع فى الحديث مع الغرباء من غير حجاب ،
كما أن زوجها لا يمانع فى ذلك ولا يفترض عليه ، والنوبى لا يشك فى
عفاف زوجته ولكن اذا تسرب الى نفسه الشك يادر بوضعها فى جوال

وأغرقها في النيل • وعلى الرغم من كل ذلك فأننى أعتقد أن المرأة النوبية من أظهر نساء الشرق •

ويقدم لنا « جاذبى » صورة أخرى للحياة فى النوبة منذ مائة عام ، فيقول : ان الجنود كانوا ينتزعون الشبان من بين عائلاتهم للخدمة العسكرية تحت ظروف لاتطاق ، فإذا أفلت من أيديهم أحد كان عليه أن يدفع ضرائب باهظة لاتكاد تبقى له من محصوله الضئيل ما يكفى اطعام أسرته ، هذه الصورة انما توضح مدى ما طرأ على النوبة من تغيير وكيف انها الان اصبحت تتمتع برخاء نسبي ؟

ثم هناك صورة أخرى من صور الحياة فى النوبة رسمها الرحالة الفرنسى « جان لابورت » وكان قد ارتد النبل من منبسه الى مصبه فى قارب من المطاط ، يقول « لابورت » انه لم يجد فى رحلته الطويلة من هم أكثرأمانة من أهل النوبة ، حتى انه كان يترك القارب ، بما فيه من طعام وملابس وأجهزة ، أياما كاملة ، فلا يقربه أى نوبى ولا يمسه بسوء ، ويعلق على ذلك قائلا : ان النوبى - اذا لم تفسده حياة الحضر - مستقيم غفيف النفس كريم أمين الى أقصى حد •

ولقد ظلت النوبة صفحة مطوية أمام الاثريين حتى قامت بعثة جامعة شيكاغو بمسحها مسحاً أثريا عند التعلية الاولى لحزان أسوان عام ١٩٠٧ء ، ولم تكن لدى العالم أية معلومات عن الشعوب التى عاشت فى هذه المنطقة أو عن حضارتها ، ما عدا بعض اشارات عابرة الى القبائل النوبية التى دوتها البعثات الاثرية فى سجلاتها عن تاريخ الاسرات الفرعونية • ولكن المسح الاثرى للمطقة كشف عن وجود تجمعات بشرية كبيرة فى جنوب شلالات أسوان كانت ذات تاريخ متصل وكانت تشغل بالزراعة والصيد والقيام بخدمات النقل بين شمالى وادى النيل وجنوبه •

وأقدم المجتمعات البشرية التى اكتشفت آثارها فى النوبة - جماعة ذات شبه كبير بسكان مصر فى عهد ما قبل الاسرات •

ويبدو أن هذه الجماعات النوبية كانت من العنصر الذى نشأ منه

المصريون نفسه ، فقد كانوا يستعملون الاواني الخزفية والظران والجلود والحلى التى كانت تستعملها الجماعات التى كانت تسكن فى شمالى الوادى . ويستنتج من ذلك أن المصريين ، فى عهد ما قبل الاسرات ، قد احتلوا وادى النيل من الدلتا حتى جنوب الشلال الاول ، وأن القبائل التى كانت تسكن هذه المنطقة على اتصال دائم فيما بينها •

وكذلك يمكن أن نستنتج أن الجماعات التى كانت تسكن فى جنوب الشلال ، وذلك بعد الفترة الاولى من عهد الاسرات فى مصر ، قد تخلفت عن التطور الحضارى العظيم الذى شمل المناطق السفلى للنيل وهو التطور الذى يعرف فى التاريخ بالحضارة الفرعونية ، وان هذه الجماعات الجنوبية ظلت متمسكة بصناعاتها البدائية وأسلوب حياتها القديم ، اذ أن هذه الصناعات كانت ولا تزال ، سمة من سمات النوبيين حتى اليوم ، فلقد استبدل المصريون الاواني النحاسية بالاواني الخزفية أو الفخارية - ولكن الجماعات الجنوبية ظلت تصنع اوانيتها الخزفية صناعة يدوية ، وكذلك عرف المصريون عجلة الخزاف - وهى من أدوات صنع الخزف - وبذلك استطاعوا تطوير هذه الصناعة والارتقاء بها الى درجة عالية ، فى حين أن هذا التطور الفنى الكبير لم يكن ذا أثر على التوبة ، فقد ظل النوبيون يشكلون آنياتهم الخزفية بأيديهم وتدل الآثار ، التى اكتشفت فى المقابر الاثرية ، على أن هذا التخلّف الحضارى اقترن باختلاط عنصرى بين النوبيين والزنوج • ومن ثم أصبح الشلال الاول أشبه بحاجز عصرى يفصل بين الشمال والجنوب •

وإذا كان الامر كذلك فمن أين جاءت هذه العناصر المصرية البدائية؟ ان هناك نظرية تقول : ان هذه الجماعات هاجرت من آسيا الصغرى ، كما أن هناك نظرية أخرى تقول : ان المصريين هم بقايا السلالات التى خلقتها قارة • أطلانطا ، التى طواها التاريخ •

وفى عهد يوليوس قيصر كتب المؤرخ الاغريقى (ديودوروس سيكيلوس) (تيودور الصقلى) تاريخا للعالم جاء فيه ما يلى : يقول المؤرخون : ان الأثيوبيين (أصحاب البشرة السوداء) هم أول السلالات

البشرية ، وأن غالبية العادات والتقاليد المصرية من مخلفات هؤلاء
الاثيوبيين •

ويرجح علماء الآثار المصرية الحديثون رأى « تيودور الصقلي » ،
فقد كتب « أ • ج آركل » الذى يشرف على الحفائر فى السودان يقول :
ان لوراة التقاليد دلالة تاريخية كبيرة ، واذا كان الجانب الاكبر من
الحضارة المصرية يرجع الى اصول آسيوية فان تقاليد المصريين وعاداتهم
ندل على أن أجدادهم قدموا من بلاد « بونت » أو بلاد الآلهة كما كان
يطلق عليها ، وكان يرجح أنها بلاد الصومال ، ومن المحتمل أن الجنس
الاسمر الذى عاش فى مصر فى عصر ما قبل الاسرات قد انحدر من هذه
الاصول الصومالية •

أما البروفيسور (بلوملى) من أستاذة جامعة كمبردج ، وكان قد
زار النوبة فيما بين عامى ١٩٦١/٦٠ ، فيقول : ان مصر وبابل نشأتا
من عنصر واحد ، وان هذا العنصر وفد من منطقة القرن الاقريقي
• وهى المنطقة التى تسمى الآن بلاد الصومال وكانت تسمى قديما بلاد
« بونت » • ويبدو أن هذه الجماعات البوتية اتجهت شمالا على طول
ساحل البحر الاحمر ثم عبرت الجبال والصحراء عند القصير الى وادى
النيل •

غير أننى أرى أن هذا العنصر ، الذى انحدر منه المصريون ، وقد
نشأ أولا فى جنوبى جزيرة العرب ، ثم عبر البحر الاحمر واستقر فى
الجانب الاقريقي ، ومن دلائل ذلك أنه عثر بين مخلفات عصر ما قبل
الاسرات بمصر على رسوم تمثل قوارب • ولو أمكن العثور على مثل
هذا النوع من القوارب فى الصومال ، لزادت المسألة وضوحا •

ومهما يكن من أمر فلا بد من دراسات أثرية شاملة لتحركات
الشعوب والقبائل فى افريقية ، وبخاصة أن بناء السد العالى سيحول دون
استجلاء كثير من هذه الحقائق •

ولقد علمت من الاستاذ (آركل) أنه عثر فى الخرطوم ، وهى

الى الجنوب من منطقة النوبة وتبعد عنها كثيرا على مخلفات شعب
زنجى بلغ مستوى من الحضارة لم تكن مصر القديمة قد بلغت في
عهده ، ومن يدري ؟ فلعل مصر في عصر ما قبل الاسرات قد نقلت
حضارتها عن هذا العصر الزنجى •

ويستطرد (آركل) فى الحديث عن الحضارة القديمة فى
السودان فيقول : انه لابد من الكشف عن بقايا حضارتين احدهما حضارة
« جوج » والاخرى حضارة « أم درمان » لنعرف : هل كانتا حضارة لعناصر
زنجية كذلك التى اكتشفت فى الخرطوم أو العناصر سمراء كذلك التى
ينحدر منها قدماء المصريين ؟ •

على أننا نجد على مسافة سبعمائة ميل من « تمبكتو » آثار نهر كان
يصب فى « النيجر » • ولقد اكتشفت فى المجرى الجاف لهذا النهر بقايا
أوان من الخزف أشبه بالاوانى التى اكتشفت فى الخرطوم ، وجوج ،
وأم درمان •

يضاف الى ذلك أن الاوانى الخزفية ذات الخطوط الموجة نفسها
قد اكتشفت فى كسلا على البحر الاحمر ، وهذا النوع من الخزف نفسه
اكتشف فى شمالى العراق • ويعلل ذلك الاستاذ « آركل » بأن هذا
النوع من الخزف ظهر أولا فى آسيا ثم نقله الصيادون الزنوج ، عبر
البحر الاحمر ، الى السودان ، ومنه انتقل غربا الى الصحراء الكبرى ،
وذلك قبل أن يصل الى شمالى وادى النيل والدلتا ويصبح أحد أركان
الحضارة الفرعونية • واذا كان ذلك صحيحا فلا بد أنه تم حين كانت
الصحراء الكبرى مروجها خضرا ياتعة فيها الشجر والنبات والزرع ،
وحين كانت دلتا النيل مخاضات ومستنقعات ، أى أنها لم تكن تصلح
للسكنى كالمناطق الجنوبية • كما أن الكشوف الاثرية فى منطقة «الحجاز»
فى الصحراء الكبرى تثبت أن الاتصال بوادى النيل كان فى تلك العصور
أسهل كثيرا مما هو عليه الآن •

وكذلك تثبت التدييات والحفريات التى كشفتها البعثات الاثرية

فيما حول الخرطوم ، ما كان بين هذه المنطقة ، وما يليها غربا من الصحراء الكبرى ، من علاقة وثيقة وان هذه الصحراء كانت يوما ما أرضا خصبة ومتجما طيا للإنسان الاول .

هذه هي البحوث التي يقوم بها الاثريون الآن في افريقية ولعلها تكشف لنا الكثير عن اصول الحياة في مصر والنوبة .

ولقد خلف لنا العصر الحجري الشيء الكثير من آثار النوبة ، وقد أحصيت هذه الآثار وتم تسجيلها . ويقدم لنا « دنبار » وصفا شائقا للنقوش والزخارف التي عثر عليها في صخور المنطقة بين اسوان ووادي حلفا ، وذلك في كتابه « النقوش الصخرية في النوبة السفلى » .

يقول دنبار : ان المنطقة التي بين قرية « خور رحمة » (وبت الوالى) تعتبر معرضا فنيا رائعا لمبقرية الانسان الاول ، ولكن هذه الثروة الاثرية سوف تختفى بعد بناء السد العالى ، وقد أبدى معهد الآثار التشيكي في القاهرة وجامعة « همبودلت » في برلين ، استعدادهما لتصوير هذه النقوش الاثرية قبل ان يحوها ماء السد .

وقد عثر « ماير » والدكتور « بلمادى كسولا » في « عقبة » جنوبى وادى حلفا على نقوش صخرية تمثل الفترة التي تبدأ من العصر الحجري المتوسط حتى العصر المسيحي وكان من بينها صور لحيوانات لا تعيش الآن في هذه المنطقة ، مثل الفيل ووحيد القرن « الخريت » والزرافة وقد قدر البروفيسور « كرين » الاستاذ بجامعة متشجان ، عمر هذه الحفائر بنحو ٧٠٠٠ سنة أو ٧٥٠٠ سنة .

ومما أثار دهشة الاثريين أن هذه النقوش تشابه مشابهة تامة ما خلفه قناو اسبانيا من نقوش في العصر الحجري الوسيط (الميزوليثى) ، وليس فى ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فان البحوث الاثرية التى قام بها أخيرا الدكتور « هوفمان » فى جنوبى افريقية عن العصر الحجري ، أثبتت أنه كان يسكن فى جنوبى افريقية عنصر أطلق عليه اسم « شعب ولتون » وأن هذا الشعب قد هاجر من أوروبا الى جنوبى افريقية عن طريق

شمالى افريقية والصحراء التى كانت فى ذلك العصر أرضا ذات زروع
هامة ، وأن هذه العناصر الاوربية جلبت فن النقش على الصخور .

ان الحديث ذو شجون .. لقد كنت أتكلم عن النوبة وآثارها ،
ولكن الحديث عن الآثار أغرائى ، وصرت أشبه بمن يطوف فى رحلة
بين آسيا وافريقية . والواقع أن هجرات الشعوب قامت بدور كبير فى
انتقال الحضارة . وفى ذلك يصدق قول الاستاذ « آركل » : مادامت هذه
الحواجز قائمة بين الجهود الاثرية فى السودان ومصر فإن كل كشف
أثرى جديد ، فى أية جهة من افريقية سيظل ذا طبيعة اقليمية منفصلة
حتى يجىء يوم ترتبط فيه البحوث الاثرية فى منطقة وادى النيل بعضها
ببعض ، وحينئذ نبدأ فهم النشاط البشرى والتقدم الحضارى فى افريقية .
ويقول « فيركونز » الذى كان يشرف من قبل على مصلحة الآثار
السودانية : ان النوبة العليا غنية بالآثار التاريخية التى تستحق الدراسة
ولكن دراسة الآثار السودانية أهم منها لأنها سوف تفتح أمامنا الطريق
لدراسة تاريخ افريقية كله .

ويضرب مثلا لذلك قائلا : انه فى عصر ما قبل الاسرات فى مصر ،
أى فيما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، كانت مصر العليا
والنوبة ، أى المناطق الشمالية من السودان ، تكون وحدة حضارية
وعنصرية ، وان الشعوب التى تقطن فى السودان قامت بدور هام فى بناء
الحضارة فى وادى النيل ولا تنسى أن النوبة فى العصور الوسطى كانت
تضم مملكة مسيحية زاهرة ظلت قائمة فيما بين عامى ٦٠٠ و ١٥٢٥
ميلادية وكانت تستخدم الابجدية الاغريقية .

ويخشى « فيركونز » من أثر السد العالى على اثار النوبة العليا فى
السودان أكثر من خشيته على اثار النوبة السفلى فى مصر ، لان النوبة
السفلى كانت موضع اهتمام الاثريين منذ فترة طويلة ، ولذلك فقد درست
دراسة أثرية طيبة ، وذلك على عكس النوبة العليا .

يضاف الى ذلك أن ما بذلته الحكومتان المصرية والسودانية من

جهود لتسجيل الآثار ليست الا جهودا محدودة ، وأن المراقيل كثيرة
فى طريق الانتقال بين النوبة العليا والنوبة السفلى ، وهى عراقيل مازالت
قائمة حتى أمام الهياكل الأثرية الأجنبية التى توافدت على المنطقة استجابة
لنداء منظمة اليونسكو •

وقد اتجهت الحكومة المصرية أخيرا الى تشجيع البحث الأثرى
فى منطقة النوبة ، وذلك بأن تمهدت بالسماح للباحثين بأن يقوموا بعد:
ذلك بالبحث الأثرى فى مصر نفسها كما وعدتهم بهدايا أثرية نفيسة •

أما وزير المعارف السودانى فقد صرح بأن بلاده تمنح الباحث الأثرى
نصف ما يكتشف من قطع أثرية ، وأبدى أسفه على أن السودان ليس
لديه من الكنوز الأثرية ما لدى مصر ، ومن ثم لا يستطيع أن يهدى أية
هدايا أثرية لرجال البعثات •

وقال وزير المعارف السودانى : ان النوبة السفلى اذا كانت قد خُظيت
بنصيب كبير من جهود الأثريين فإن النوبة العليا لازال كنزا أثريا مقلعا،
ولعل هذا وحده يكون حافزا قويا للمهتمين بالآثار فى العالم أجمع على
المبادرة بالقدوم لمنطقة النوبة العليا لدراسة آثارها وتسجيلها ، قبل أن تفر
المياه المنطقة كلها •

ولا يفوتنى أن أشير الى أن الباحثين عن الآثار من الأجانب يودون
الحصول على مقابل لما ينفقونه من أموال • وقد تسفر أعمال الحفائر التى
يقومون بها فى النوبة عن خيبة أمل ، واذن فعلى الحكومة المصرية أن
تقدم لهم بعض الفائض لديها من آثارها أما السودان فليس لديه ما يقدمه ،

لقد تلقيت من مدير الحفائر السودانية قائمة بالمناطق الأثرية التى
سوف تفرها مياه السد العالى فى النوبة العليا ، ولقد قرأت هذه القائمة
ففرغت ، اذ أحصيت بها أكثر من مائة منطقة من مناطق البحث الأثرى
تضم آثارا قيمة من العهد المسيحي وعصر الدولة الوسطى فى النوبة •

فى الوقت الذى كان السومريون يضعون فيه اسس الحضارة البابلية وينقش فيه الصينيون الزخارف على الخزف كان هناك فرع من الجنس الاسمر يضع اسس الحضارة المصرية التى امتدت حقبا طويلة على مدى العصور . أما ما يربط تلك الحضارات الشرقية العريقة من وشائج فلا يزال سرا مطويا فى سجل التاريخ . والذى يهمنا الان هو أن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ما قبل الاسرات قد نقلوا فن صناعة الخزف عن جنوب الشلال ، ولكنهم بعد ان ارتقوا فى مدارج المدنية لم يبعدوا الى تلك المناطق العليا للنيل ما قدمته لهم من فنون الحضارة ، ومن ثم بدأ الشعبان اللذان يقطن أحدهما فى شمال الشلال والاخر فى جنوبه يفترقان فى المستوى الحضارى .

ويبدو أن مرجع ذلك لا يقتصر على وجود الشلال وحده ، فهو حاجز ضئيل لا يحول دون امتزاج الحضارتين ، ولكن هناك عنصرا آخر أدى الى عدم هذا الامتزاج ، وهو أن الاراضى فى جنوب الشلال أرض صخرية وعرة يفشاها جو جاف شديد القسوة ، فجعل الاتصال صعبا جدا بين مصر وبلاد « كوش » ، ولم تحاول الشعوب فى ذلك العصر التبوليتى (الحبرى الاخير) أن تتحدى الطبيعة كما تتحداها نحن اليوم ، فتدفع برجالها وتجاريتها الى اقصى الارض .

ولقد أثبت « ريزنر » وغيره من الاثريين الذين قاموا بمسح المنطقة اثريا قبل التعمية الاولى لخزان أسوان عام ١٩٠٧ أن الخزف المصرى ذا الزخارف والقوش لم يكن لوجوده أثر فيما وراء الشلال . ولكن الاثريين اكتشفوا بعد هذا التاريخ وجود علاقات تجارية بين فرع من الجنس الاسمر فى النوبة وبين الاسرة الاولى المصرية ، ودل هذا الكشف الاثرى على أن هؤلاء السمر كانوا تحت حكم ملك وانهم كانوا يستعملون أوائى من النحاس والخزف لابد أنهم استوردوها من مصر .

ولقد أطلق « ريزنر » على هؤلاء السمر اسم « مجموعة أ » لأنها

لم تخلف وراءها كتابة ، فلم يعرف اسمها ، ويبدو أن هذا العنصر الاسمر قد وصل الى النوبة فى نحو سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد ، ولكن أحدا لا يعرف حتى اليوم من أين أتى هذا العنصر وان تكن الكشوف الأثرية قد دلت على أنه قريب الصلة جدا بسكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات ؟ ، وكانوا يدفنون موتاهم فى قبور مستطيلة أو بيضاوية وكانت الجثة توضع بطريقة مماثلة لما كان متبعا فى عصر ما قبل الأسرات فى مصر .

ويقول الأستاذ « (ركل) : ان « مجموعة أ » السمراء هذه ، وكذلك سكان مصر قبل عصر الأسرات ينحدرون من أصل واحد ، وأن أجدادهم قدموا من مكان ما فى شرقى السودان على خط عرض الخرطوم .

ولما أصبح المصريون مجتمعا منتظما تحت حكم الأسرات الملكية الحاكمة ، اخذت رغبة الملوك تشدد فى الحصول على العاج والنسائيس والاختشاب ذات الرائحة الزكية ، وهذه كلها لا توجد الا فى أقاليم الجنوب ، وكانت النوبة هى الطريق الى بلاد « كوش » ولذلك عبرت بلاد النوبة البعثات التجارية ، التى أرسلها الفراعنة الى كوش .

ويقول « ريزنر » : ان هذه البعثات التجارية ظلت بعثات سلمية طول عصر المملكة القديمة فى مصر ، وأن علاقاتها مع الزعماء المحليين كانت ودية ، وانها لم تحمل من السلاح الا ما يكفى الدفاع عن النفس .

وعلى الرغم من أن هذه البعثات التجارية كانت بعثات سلمية فانها فى عهدها الاول لم تخل من حوادث مؤلمة ، وكان الفراعنة يضطرون أحيانا لارسال حملات تأديبية الى الجنوب ، ويفرضون على المعتدين هناك غرامة فادحة وهى عبارة عن عدد من الرقيق أو الماشية .

وعلى مسافة تبعد عن جنوب وادى حلفا بأيمال قليلة منطقة صخرية صغيرة تعرف باسم « جبل الشيخ سليمان » ، وعلى قطعة من صخورها اكتشف البروفيسور (آركل) رسما عن إحدى غزوات الملك (جير) ثالث ملوك الأسرة الاولى ، لقد كانت غزوته هذه لبلاد النوبة

بين أسوان ووادى حلفا ، وفى الصورة رمز عن انتصاره فى هذه الغزوة وهو عبادة عن مركب مصرى من مراكب الاسرة الاولى يسير فوق جثث النوبيين وقد علق فى مقدمته زعماء النوبة •

ومنذ عدة سنوات اكتشف متحف « باليرمو » فى مدينة صقلية أن لديه قطعة من الحجر المنقوش من بقايا الدولة القديمة فى مصر ، وقد أطلق على هذا الحجر اسم « حجر باليرمو » وقد نقشت عليه اسماء بعض ملوك الاسرة الاولى واهم الحوادث التى وقعت فى عهدهم •

كذلك عثر على نقوش من عهد « سنفرو » أحد ملوك الاسرة الرابعة ، وقد كتب تحتها العبارة التالية : « ذلك هو عام تدمير بلاد السود - لقد أحضرنا سبعة آلاف أسير من الرجال والنساء ومائتى ألف رأس من الماشية والماعز والأغنام » •

ويبدو من ذلك أن حملة « سنفرو » التأديبية قد توغلت جنوبا حتى الشلال الرابع ، كما يبدو أنها وجهت الى الكوشيين ضربة عنيفة ظلت البلاد تنمن منها طوال ثلثمائة عام •

والى الجنوب من قرية بيت الوالى • وعلى مسافة ثلاثين ميلا منها بقايا مدينة أثرية أطلق عليها الأغريق اسم « بسيلكيس » وقد عثر « فيرت » قرب هذه المدينة حين قام بمسح أثرى للنوبة بين عامى ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ على أسوار قلعة « ايكور » الأثرية • ويقدر « فيرت » أن الأسوار الخارجية للقلعة كانت قد أقيمت فى عهد الدولة الوسطى فى مصر ، أى فيما بين الاسرتين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، أما المباني الداخلية فهى من عهد الدولة القديمة ، ومن المحتمل أن قلعة « ايكور » قد أقيمت فى أثناء حكم الاسرة الثالثة أى قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف عام •

ويبدو أنها لم تكن قلعة عسكرية وإنما كانت محطة تجارية محصنة ، أى أنها أشبه بالمحطات التجارية التى أنشأها الأمريكيون فى غربى الولايات المتحدة وشمالها منذ عهد ليس بعيد ، أو أنها أشبه بمراكز

التجارة وشراء الرقيق التي أقامها العرب على النيل الأبيض حتى منتصف القرن الماضي .

وكانت « إيكور » لا تزيد على أنها مخزن للبضائع ، وهذا يدلنا على أن النوبة السفلى كانت أضعف من أن تكون مصدر تهديد لمصر في عصر خوفو وما بعده . والراجح أن التوبيسين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، يعيشون في العصر الحجري الاخير ، وأن المصريين كانوا ينظرون اليهم على أنهم همج محقرون ، وهم بذلك يتجاهلون صلات الدم القديمة التي تربط الشعبين . أما السبب الذي دعا المصريين الى تحصين « الفاتين » فهو خوفهم من غارات « الكوشيين » الذين كانوا يقيمون فيما وراء النوبة السفلى . وهذا دليل على أن النوبة السفلى كانت منطقة حاضرة بين المصريين في الشمال وأهل الجنوب الاقوياء ، ولهذا كان التقدم الحضارى في هذه المنطقة مستحيلا .

لقد اتخذ المصريون النوبة السفلى طريقا للمواصلات التجارية والعسكرية وعثر في مقبرة أحد النبلاء في أسوان ، واسمه « حورى » على صورة للقائد المصرى « خنوم حوتب » وقد كتب تحتها أن « خنوم حوتب » ذهب الى « كوش » احدى عشرة مرة . وأنه فى حكم الملك « آسا » ذهب حامل أختام الملك الى الجنوب وأحضر قزما ليرقص أمام الملك ويقوم بتسليته .

كذلك يشير ما سجله التاريخ الى أن المصريين أرسلوا بعثات الى بلاد « بونت » التي عند بوغاز باب المندب الحالى . ومن المحتمل أن أجداد المصريين عبروا البحر الاحمر فى هذه المنطقة الضيقة بين آسيا وأفريقية منتقلين من جزيرة العرب الى الصومال عن طريق جزيرة « بريم » .

وأبناء أول بعثة مصرية الى « بونت » عن طريق البحر الاحمر قد عرفت من نقوش « حجر باليرمو » السالف الذكر ، وهذه البعثة الاولى نمت فى عهد الملك « ساحورع » من ملوك الاسرة الخامسة ، وأن البعثة جلبت معها من « بونت » المرمر ، وسبائك الذهب والفضة ، والاختشاب .

وفى مواجهة جزيرة « حيسا » على الشاطئ الشرقى للنيل كتلة صخرية من الجرانيت حفر عليها اسم الملك « مرني رع » من ملوك الأسرة السادسة ، وقد استند الى صولجانه (١) وقد ظهر من خلفه ذيل الاسد وهذا هو شعار الملكية الوحيد . ومن وراء الملك يظهر الاله « خنوم » وأمامه يقف صف من زعماء النوبة ليقدموا الطاعة والولاء لفرعون مصر . وفى أعلى الصورة العبارة التالية : « ملك مصر السفلى والعليا » مرني رع « المحب الى « خنوم » سيد الشلال - السنة الخامسة - الشهر الثامن من الفصل الثالث يوم ٢٨ » .

وهذا يوافق عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد .

هكذا قدم الملك بنفسه الى الجنوب وقد انبطح أمامه زعماء «مازوى» و «ايرنيت» و «واوت» لتقديم فروض الطاعة .

ومن الواضح أن ملوك الأسرة السادسة الفرعونية هم أول من بسط نفوذه على بلاد النوبة من ملوك مصر ، وأن ولانهم كانوا يجولون فى أنحاء النوبة ويأخذون من خيراتها ما يريدون دون أن يمسه أحد بسوء ومن بين هؤلاء «أوني» أحد ولاة الملك «مرني رع» على المناطق الجنوبية ، فقد عهد اليه الملك بالتوجه الى محاجر الجرانيت عند الشلال الأول للحصول على أحجار لبناء الهرم الملكى فى سقارة ، ولانزال المحاجر قائمة وما زال الهرم قائما حتى اليوم . وفى القرن الماضى عثر المسيو «ماريت» ، المدير السابق لمصلحة الآثار المصرية ، على مقبرة «أوني» فى أيدوس (العرابية المدفونة) وقد كتب على المقبرة ما يلى : حينما كنت منوطا بخدمة كرسى العرش وحاملا « لسندل » مولاي العظيم «مرني رع» الخالد ، ملك مصر السفلى والعليا جطنى نبىلا وحاكما للجنوب ، لانى كنت موضع ثقة جلالته وموضع رضا جلالة الملكة . وهكذا أحبنى جلالته .

ويقول «أوني» : ان الملك أرسله الى «الفاتنين» لاستحضار

(١) الصولجان : عصا خاصة بالملك . تكتب فى رأسها عبارات ورموز له .

الجرايت اللانم لبناء هرمه وهرم الملكة ، وأن بعته كانت من نسمة
مراكب للبضائع والامنة ومركب حربى واحد ، ولم يسبق لائ فرعون
أن أرسل الى « الفاتين » ومحاجر « أبهيت » مركبا حريبا واحدا .
ومعنى هذا أن الجنوب فى عهد « مرنى رع » كان يقدم الولاء المطلق
لفرعون مصر .

ويستطرد « أونى » فى سرد القصة فيقول : بعثنى مولاى العظيم
« مرنى رع » لحفر خمس قنوات وصنع سبعة مراكب من خشب اللبخ
فى « واوات » ، وأقبل زعماء ايرثيت وواوات ويام ومازوى ، يجرون
الاشخاب بأنفسهم ، ولقد استطعت انجاز عملى فى عام واحد .
أنا « أونى » حاكم الجنوب ومحبوب « أوزوريس » ،

أما التابوت الذى أطلق عليه اسم « صندوق الاحياء » الذى صنعه
« أونى » لمولاه « مرنى رع » فقد عثر عليه المسيو « ماريت » فى هرم
سقارة عام ١٨٨٠ . وقد عثت به يد لصوص الآثار ، ووجدت مومياء
الملكة وقد فكت عنها أربطتها ولكنها فى حالة جيدة ، وعثر بجانب المومياء
على خصلة من شعرها ، وهى الآن فى المتحف المصرى .

ولقد دأب المصريون فيما بين الاسرتين الرابعة والسادسة على
استغلال المحاجر النوبية من غير أن يعترضهم أحد ، وعلى مقربة من أبى
سمبل محجر من الديوريت منقوش على بعض أحجاره اسم « خوفو » ،
بانى الهرم الاكبر .

وفى أسوان « مقابر النبلاء » ويبلغ عددها سبع عشرة مقبرة وقد
اكتشفها الجنرال « جرنفيل » وواليس بدج » بين عامى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ ،
وتعد هذه المقابر مصدرا غنيا بالمعلومات عن العلاقات بين المصريين وشعوب
الجنوب ، ومن بين هؤلاء النبلاء « حارخوف » وكان حاكما على الجنوب
مثل « أونى » ويصف نفسه بأنه حامل ختم الملك وصفيه ، وأنه كاهن
ورائد قافلة . وقد سجل « حارخوف » على قبره نداء الى الاحياء جاء
فيه : يا مشر الاحياء ، يا من تمررون بقبرى سواء الى أعلى النهر أو الى

أسفله ، قولوا دائما « ألف رغيف من الخبز ، وآلف قدح من الخمر
لصاحب هذه المقبرة » اننى سوف أطلب لكم الرحمة فى العالم الآخر •
اننى روح طيبة وكاهن يقوم بالطقوس وممن ينطق بالحكمة •

وقد أرسل الملك « مرنبى رع » هذا الوالى أدى « حارخوف » الى
بلاد « يام » فى الجنوب فعاد ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والعاج
والحجوب وجلود الفهود والابنوس ، وحين مر بالنسوبة العليا قدم له
زعماؤها كثيرا من الماشية ، ويحدثنا « حارخوف » فيقول : ان الملك أبدى
سروره بعودته فأرسل لاستقباله « المشرف على الحمام » ومعه قدر كبير
من خمر البلح والقطاير والخبز والنيذ •

أما أعظم مغامرات « حارخوف » فقد تمت فى خلال رحلته الرابعة
الى الجنوب فى عهد الملك « بيبى الثانى » آخر ملوك الاسرة السادسة ،
وفى أثناء الرحلة تلقى من الفرعون رسالة ملكية جعلته يزهو بها ويفخر ،
حتى انه طلب أن تكتب صورة منها فوق مقبرته •

ويعلق الثروفيسور « آركل » على رحلة « حارخوف » الى الجنوب
فيقول : انه لم يسر بمحاذاة النيل وانما اتخذ طريق القوافل التى تمر
بواحتى دنقل وسليمة ، ثم تؤدي الى المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم
دارفور ، والتى هى على خمسمائة ميل غرب النيل ، وأنه لابد أن يكون
قد وصل الى موقع مدينة الفاشر الحالية ، ومن هناك استطاع أن يتبادل
السلع مع القادمين من مناطق الغابات جنوبا حتى اقليم الكونغو ، وبذلك
استطاعت مصر الحصول على الابنوس والعاج وغيرها من المحصولات
الاستوائية •

« ٣ »

كانت رحلة « حارخوف » الى الجنوب دليلا على أن النيل لم يكن
الطريق الوحيد بين مصر وبين الجنوب ، وهذا يرجع الى أن النيل فى
منطقة التوبة حتى الخرطوم تترضه ستة شلالات ، أو هى على الاصح
ستة جنادل ، اذ أنها جزر متناثرة من الصخر فى مجرى النهر ، ولم

يستطع الفراغة اجتيازها فى قوافل تجارية نهريّة عبر النيل ، لأنّ الصخور وقوة التيار تحطم أمّتن السفن ، ومع ذلك فقد وصلوا حتّى الشلال الرابع . وكانت حدود بلادهم من جهة الجنوب تنتهى عند أسوان وذلك فى أيام ضعفهم ، أمّا فى أيام قوتهم وبأسهم فإنّها تمتد جنوبا حتّى الشلال الثانى .

وكانوا يستخدمون النيل فى الملاحة من الدلتا الى باب الفاتين (١) وبعد ذلك تنقل بالبر فى قوافل تسير بمحاذاة النيل ، أو تسير فى الصحراء نحو الجنوب الغربى - الى بلاد « يام » ، أو تتجه الى الصحراء الشرقية نحو مناجم الذهب . وكانت القوافل عرضة لغارات القبائل التى كانت تقيم فى هذه المناطق المجهولة ، مما اضطرّ الفراغة الى أن يبعثوا الى هناك حملات تأديبية بين حين وحين .

ومن أشهر هذه الحملات حملة النيل « ببى نخت » فى عهد الفرعون « ببى الثانى » فقد استطاع « ببى نخت » أن يخضع القبائل المتغيرة اخضاعا تاما وأن يحضر زعماءها الى بلاط الملك فى مصر .

ويقص علينا « ببى نخت » أن الفرعون أرسله فى حملة أخرى الى بلاد « العرب » حيث اتجه نحو خليج السويس لاحتضار جثة « انكجيت » الذى كان يبنى سفينة لبلاد « بونت » وقتله العرب ، سكان الرمال ، هو ومن معه من الجند ، ومن هذه القصة ينضح أنه كانت هناك اتصالات منتظمة بين مصر وبين بلاد بونت « الصومال » وأن المصريين أتقنوا فن الملاحة ، وان لم يتجهوا كثيرا الى البحر ، ذلك بأنهم كانوا يجدون ما يطلبون فى بلاد كوش وبلاد يام .

ان الحاجة هى التى تدفع بالمغامرين والمكتشفين الى ارتياد آفاق جديدة ، ولقد كان المصريون فى سعة أغنتهم عن هذه المغامرات الكشفية ، وإذا كنا نحن الاوربيين قد قمنا بمثل هذه المغامرات ووصلنا الى منابع

(١) أسوان الآن .

النيل التى لم يصل اليها المصريون فان ذلك لا يحمل معنى التفوق اذ أن الدافع الى ذلك هو الحاجة •

من أجل ذلك لم يفكر المصريون فى اكتشاف منابع النيل ، واكتفوا بأنه « هبة من الله » •

ومقبرة « بيبى نخت » بين المقابر القائمة فى المنطقة المرتفعة المقابلة لاسوان وقد عثر البروفيسور « ايدل » الالماني فى شتاء عام ١٩٦١ على مقبرة جديدة لم تعرف قيمتها الاثرية حتى الآن •

لقد كان « بيبى نخت » من آخر نبلاء أسوان ، اذ انهارت بموت الملك ، فى نحو عام ٢١٤٠ قبل الميلاد ، السلطة المركزية فى مصر ، وكان هذا ايذاناً بنهاية الدولة القديمة وبداية العصر الوسط • وفى ذلك العصر مزقت مصر الخلافات الداخلية وأحالت قوتها الى ضعف ، وكان كل أمير يجد فى نفسه شيئاً من القوة ، يميل الى السيطرة على غيره •

وفى أثناء ضعف مصر كان سكان الجنوب ، وهم الذين اطلقنا عليهم اسم « المجموعة أ » قد انتهى أمرهم ولم تقم لهم قائمة ، غير أنه قد حل محلهم عصر جديد أطلق عليه اسم « المجموعة ج » وهى مجموعة ترتبط من الناحية العنصرية « بالمجموعة أ » والكل من جنس البحر الابيض ، الأسمر • ويرى البروفيسور « آركل » أنه من المحتمل أن « مجموعة ج » كانت فى أقصى الجنوب ، قبل أن تنتقل الى النوبة ، وأنها لم تكن تقطن شواطئ النيل ، وانما كانت منتشرة على جانبيه الشرقى والغربى •

وكان سكان النوبة يربون الماشية ، واذا مات أحدهم دفنوا حول مقبرته رموس الماشية التى تذبح فى جنازته ، والمقبرة عبارة عن سور دائرى من الاحجار • وفى وسطها حفرة صغيرة توضع فيها الجثة ثم يملأ وسط الدائرة الحجرية بالرمال فتبدو كأنها كعكة ضخمة ، وتطورت المقبرة بعد ذلك ، اذ بنيت لدفن الجثة حجرة ، ثم أضيف الى الحجرة معبد صغير وذلك من الناحية الشرقية لتقديم القران • ولا يزال مثل هذا المبد قائماً

فى النوبة حتى اليوم ، ولكن بصورة أخرى، اذ يلاحظ أن بمقابر النوبيين المسلمين مقصورة صغيرة بها قدور من الماء ، ومن المؤكد أن الماء خير قربان يقدم فى هذه البقاع الظامئة أما الفقراء الذين لا يستطيعون بناء مثل هذه المقصورة فإنهم يضعون جرار الماء بجانب القبر (١) .

ولقد عثر بجانب مقابر « المجموعة ج » ، على أعمدة منصوبة وقد نقشت فوقها رسوم حيوانية ، ومثل هذا النوع من الأعمدة وجد أيضا فى مقابر موغلة غربا فى الصحراء الكبرى، وهذا يوحى بأن هذه المجموعة العنصرية وفدت من الغرب ، أو أنها انتقلت غربا عبر الصحراء ومن ثم تعتبر أفريقية وحدة أثرية ، ويمكن القول بأن النوبة هى مفتاح هذه الوحدة .

ومن المرجح أن تكون هذه المجموعة العنصرية قد اضطرت الى الانتقال الى وادى النيل بعد ما جفت مراعيها وأصبحت أرضها صحراء قاحلة ، وقد تكون سلالة من « التيمة » الذين يروى لنا النيل المصرى « حارخوف » أن زعيم « اليام » ذهب لتأديبهم ، ويقول البروفيسور « آركل » ان قبائل « التاما » لانزال تعيش فى هذه المناطق ، وكذلك يقول آركل : ان قبائل « ايرثيت » ، التى ذهب النيل « ببى نخت » لتأديبها ذات شبه كبير بقبائل « الاورتى » التى يتكلم أفرادها بلهجة نوبية حتى اليوم .

ولقد أتاح ضعف مصر « للمجموعة ج » دخول النوبة ، واذا كانت هذه المجموعة من البدو الرحل فقد عمدت الى الاستقرار فى وادى النيل .

ويحدثنا الجغرافى « سترابون » فى كتابه « الجغرافيا » الذى صدر قبل ميلاد المسيح بضع سنوات عن « الاثيوبيين » فيقول : انهم يعيشون عيشة قاسية وأنهم عراة رحل لا يستقرون فى مكان واحد .

(١) مما تدعو اليه السنة فى الاسلام غرس الاشجار أمام القبور ونثر الماء حولها كما زارها احد .

ولكن « سترابون » لم يتجاوز أسوان فى رحلته نحو الجنوب ، وربما كان يصف « المرويين » نقلا عن الرواة . ومع ذلك فالمشاهد أن كل الشعوب التى توافدت على وادى النيل تحولت من البداوة الى الحضارة ، يستوى فى ذلك المصريون والعرب . ولقد تسلمت بعض عناصر « المجموعة ج » الى وادى النيل شمال الشلال الاول . ويقول البروفيسور « يونكر » النمساوى : انه عثر على مقبرة لهؤلاء فى « القوبانية » منذ خمسين عاما ، وربما كان هذا أقصى مكان بلغوه شمالا حيث أوقف تقدمهم أمراء طيبة فى أثناء حروبهم مع خصومهم فى الشمال . ولما انتصر امراء طيبة أسسوا الاسرة الحادية عشرة سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد ، ومن ثم بدأت الدولة الوسطى . ومنذ قيام هذه الدولة أخذ احتلال مصر للنوبة طابعا عسكريا ، واستطاع أن يمد الحدود المصرية جنوبا حتى الشلال الثانى . وقد عثر فى « جبل الشيخ سليمان » على نقوش وكتابة تدل على أن العمال المصريين كانوا يقومون بأعمالهم العادية فى مناطق تمتد جنوبا حتى الشلال الثانى .

يقول البروفيسور « ريزنر » : ان الرسوم التى اكتشفها تدل على أن أهل النوبة السفلى كانوا يعيشون فى رخاء تحت الاحتلال العسكرى الفرعونى بلادهم ، وان حياتهم لم تكن تفرق عن حياة النوبيين الحاليين ، فقد كانوا يزرعون النخيل ويصنعون السلال ويقومون بخدمات النقل النهري . ويضيف « ريزنر » أن ثقافتهم لم تكن تتعدى ثقافة العصر الحجري الاخير ، وأنهم لم يستطيعوا الافادة من الحضارة المصرية التى قامت فى شمال بلادهم ، وما يقوله « ريزنر » قد يكون فيه شيء من التجنى على هؤلاء القوم ، وأغلب الظن أنهم انطوا على أنفسهم اعتزاذا بترائهم ، ورفضوا فى اصرار أن يستبدلوا الفن المصرى الرفيع بفنهم التقليدى .

ومهما يكن من أمر فان حفائر « القوبانية » تدل على أن « المجموعة ج » من سكان النوبة كان قد توافد أفرادها على النوبة قبل أن تقوم الدولة الوسطى فى مصر باحتلال هذه البلاد . ويقدم لنا « ولس بدج » نقوشا

من عهد الفرعون « متوحتب » أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، وهي تمثله واقفا فوق خمس عشرة قوسا تمثل خمس عشرة قبيلة همجية ، أى ان الفرعون أخضع كل هذه القبائل لسلطانه ، كما أن « امنمحتت الاول » أول ملوك الأسرة الثانية عشرة ذهب الى النوبة لتأديب « الواوات » واتم ابنه « سنوسرت الاول » احتلال البلاد واقامة عدد كبير من الحصون .

والذى يستخلص من ذلك كله أن سكان النوبة كرهوا أن تستقل خيرات بلادهم سلطة « امبريالية » كسلطة فرعون مصر ، فعمدوا الى السلب والقرصنة ، مما اضطر المصريين الى اقامة الحصون والقلاع ، لا لحماية أهل النوبة وانما لوقاية الحامية المصرية والتجارة المصرية من غاراتهم .

ومعظم ما حصلنا عليه من معلومات عن « المجموعة ج » كان مصدره تلك المقابر التى اكتشفها « شتيندورف » عام ١٩١٢ والتى أتم حفائرها عام ١٩٣٠ . وهذه المقابر تكون حلقة فى سلسلة مقابر قرب غنية ، وتمتد من الدولة الوسطى فى مصر حتى العصر الرومانى . كما أن الآثار التى خلفتها « المجموعة ج » موزعة بين « دبيرة شرق » و « كوشة » .

ونحن نرجو أن تنجح للآثرين الفرصة لدراسة هذه المناطق قبل أن تنمرها مياه السد العالى .

وفيما وراء منطقة الفيضان جنوبا بقايا أوان خزفية ونقوش على الصخر تمثل الماشية فى وضعها الطبيعى ، ويعتقد البروفيسور « ريزنر » أن التقيب فى النوبة السفلى قد يوضح لنا آخر انتشار للجنس النوبى فى الدولة المصرية الوسطى والعلاقات المصرية والحضارية لهؤلاء النوبيين . . . وقد استطاع « ريزنر » عام ١٩١٢ أن يمد منطقة الحفائر حتى مديرية دنقلة فى السودان على مقربة من الشلال الثالث ، ولا تزال القلاع الاثرية فى هذه المنطقة قائمة ، كما أنها ما زالت فى حالة جيدة وان كان بعضها قد تآكل بفعل الرياح أو طمرته الرمال المتحركة ، ومن الصعب انقاذ هذه

الآثار من مياه السد العالي ، لأنها مبنية من اللبن ، ولذلك لا يمكن نقلها إلى مكان آخر .

وقد أقيمت في المنطقة التي بين الشلالين الاول والثاني حصون « كوبان » و « غنية » و « فرس » لرعاية مصالح الجماعات المستقرة في المناطق الزراعية التي تضمها هذه المنطقة ، ولحماية المخازن والموانئ والتجارة النهرية من أية غارة تقوم بها « مجموعة ج » .

أما في أعلى النهر ، فيما وراء وادي حلفا ، فقد أقيمت سلسلة من الحصون على الصخور والجزر الصغيرة لحماية منطقة الشلال الثاني حتى قلعة « سمنة » التي جعلتها الدولة الوسطى آخر حدودها الجنوبية .

ان هذا النظام الدفاعي كان من غير شك ، وقاية طيبة للسفن الصغيرة التي تحمل البضائع التي تنقل اليها من السفن الكبرى في تلك المنطقة التي لا يصلح فيها مجرى النيل للملاحة ، كما أنه كان حماية لطرق القوافل على جانبي النهر ، وأخيرا فقد كان أقصى مراكز الدفاع من جهة الحدود الجنوبية . ولم يكن ما أنفق من أموال كثيرة على انشاء هذه الحصون وصيانتها مقصودا به ايجاد نظام دفاعي عن الحدود وكفى ، فقد كان من المستطاع انشاء هذا النظام الدفاعي ، بحيث لا يتطلب الا نفقات قليلة ، وذلك عند باب « الفاتنين » ، اذ أن النوبة السفلى لم تكن من الأهمية بحيث تتحمل مصر كل هذه النفقات في سبيل ضمها الى ممتلكاتها .

والواقع أن السبب الحقيقي في عصر مصر الفرعونية ، أي منذ أربعة آلاف عام ، هو السبب الذي يدفع الدول الآن الى انفاق الاموال والقيام بالمغامرات ، انه التبادل التجاري ورغبة المصريين في الحصول على العاج والاششاب الثمينة وبقية المنتجات المهمة في بلاد الجنوب .

ولقد كان الحصول على هذه المنتجات يستحق حماية الطريق الى الجنوب واستخدام القوة في ذلك ان لزم الامر .

وفي صدر الدولة الوسطى أهملت منطقة النوبة السفلى اهمالا تاما ، ولم يهتم المصريون بحصونها وقلاعها ، وظلت الحال كذلك حتى جلس

على عرش مصر الملك « سنوسرت الاول » وذلك فى نحو عام ١٩٧٠ قبل الميلاد فأعاد بناء حصن « ايكور » ، وقد أحسن اختيار موقعه الجديد فأقيم عند المكان الذى يبدأ فيه « وادى العلاقى » اذ يتجه جنوبا بشرق نحو مناجم الذهب فى الصحراء وتتفرع طرق القوافل الى شرقى السودان وما وراءه الى بلاد بونت (الصومال) وأقام « سنوسرت الأول » حصنا قويا فى مواجهة « ايكور » فى « كوبان » لحماية المخازن هناك .

ومنذ خمسين عاما كتب ويجول Weigall وصفا لهذا الحصن فقال : انه يترك فى النفس أثرا قويا ، كما أنه يدل على مدى نشاط قدماء المصريين فى هذه البلاد . وقد ظل هذا الحصن قائما طوال ثمانمائة عام ثم عثت به يد الزمن كما عثت به يد الانسان . وحين زارته « أميليا ادواردز » عام ١٨٧٣ وجدت الفلاحين يستخدمونه كمستودع للمساد فان ما فيه من التترات يمنح الأرض الخصب .

ولنتحدث الآن عن المنطقة الاثرية التى تجرى فيها الحفائر الروسية : فعلى مسافة ١٣٢ ميلا على الشاطئ الغربى للنيل فيما وراء خزان أسوان بقايا مدينة أثرية اسمها « معام » وهى التى تسمى اليوم غنية وفى هذه المدينة عثر « شتندورف » على مقابر « لمجموعة ج » عام ١٩١٢ ، وفيها عثر أيضا على بقايا حصن أقامه « سنوسرت الاول » وليس هناك شك فى أنه كان حصنا ضخما مثل حصن « كويان » وأنه شيد بقصد اخضاع أهالى المنطقة لحكم فرعون .

ولقد بلغت الحماسة بالرحالة « سانت جون » حدا كبيرا حينما شاهد سلسلة من الحصون تبدأ عند « فرس » على الحدود المصرية السودانية . وتقوم الآن بعثة معهد « ميكولوفسكى » البولندية بالتقيب فى المنطقة عن الآثار التى تضمها المنطقة من خمسة عشر قرنا قبل الميلاد حتى الفتح العربى وسوف نعرف من نتيجة كشوف هذه البعثة : هل كانت « فرس » هى نقطة الحدود بين مصر والنوبة أو أنها لم تكن كذلك ؟ .

والحصن التالى بعد « فرس » هو حصن « صد الميجو » وهؤلاء

الميجو رجال قبيلة مشاكسة فى الصحراء الشرقية ، وقد يكونون أجداد
« البحارة » الذين يعيشون الآن فى المنطقة » .

أما حصن « بوهن » الذى فى أعلى النهر ، فيما وراء وادى حلفا
فهو أحسن الحصون المعروفة ، وذلك بفضل التقيب الدقيق الذى قام
به البروفيسور « ايمرى » بتكليف من جمعية التقيب المصرية • ومن
المشاهد الآن أن البواخر النيلية بين مصر والسودان تحمل عددا كبيرا من
السائحين وكلهم قادمون لمشاهدة آثار المنطقة قبل أن يغمرها ماء السد
العالى ، وأكثر ما يجذب السائح شيان هما « ابو سمبل » و « بوهن » •

وتضم « بوهن » مدينة وقلعة ، والقلعة هى الأولى فى سلسلة من
القلاع تشرف على الشلال الثانى مسافة ستين ميلا حتى تبلغ « سمنة » وهى
آخر الحصون جنوبا فى الدولة الوسطى •

وفى السنة الثامنة عشرة من حكم الملك « سنوسرت الاول » أقام
أحد رجاله وهو « متوحتب » نصبا حجريا نقشت عليه صورة الاله
« متو » واقفا فى مواجهة الملك وهو يقدم له النوبة كلها فى شكل أسير
موتق يمثل كل مدينة من مدنها •

وأول كشف علمى أجري فى « بوهن » تم على أيدي « راندال ماك
ايفور » و « ليونارد وولى » وكان ذلك بتكليف من بعثة ايكلى كوكس
عام ١٩١٠ • وبعد ذلك شرعت جمعية التقيب فى مصر فى العمل تحت
رياسة البروفيسور « ايمرى » عام ١٩٥٧ ويرى « ايمرى » أن تاريخ
تشيد حصن « بوهن » يرجع الى عام ١٩٩١ قبل الميلاد ، وكان ذلك فى
نحو بداية حكم الاسرة الثانية عشرة ويقول « ايمرى » : ان وسائل
الحصن الدفاعية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصب سبلا من السهام
ومقدوفات المقالع على المهاجم طوال سيره لمهاجمة الحصن ، فإذا ما بلغ
مشارف الحصن فهناك الحامية الأولى خارج الخندق ، ومن ورائه
الاستحكامات والمتاريس • واذا فرض أن المهاجم الطاش استطاع
اجتياز الاستحكامات فهناك ممر ضيق فوقه أسوار يبلغ ارتفاعها ثلاثين

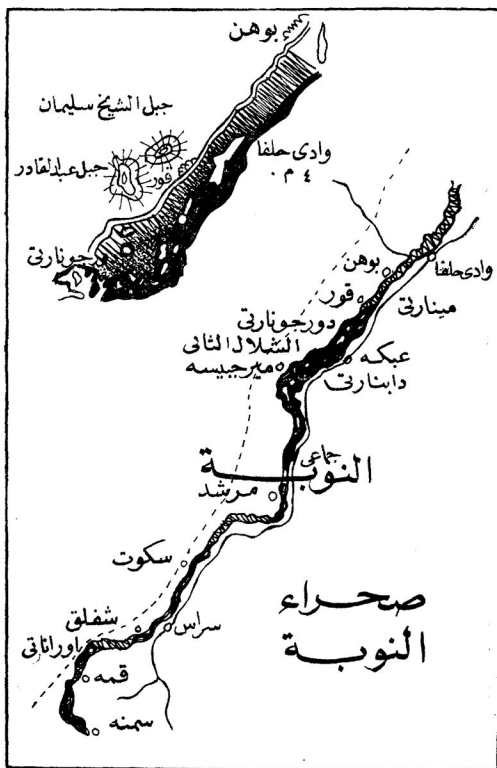
قدما ، واذا أراد أن يستولى على الحصن كان عليه أن يتسلق هذه الاسوار ، أو أن يخترقها وهي في الوقت نفسه تنتهي من أعلى بأبراج قوية •

وقد علق على ذلك البروفيسور « بارملي » أستاذ الآثار المصرية في جامعة كمبردج حين زار النوبة عام ١٩٦٠ قائلا : ان هذا الحصن القوى يدل على أن الفراعنة - وان كانوا قد استهانوا بالجنوبيين - كانوا يخشونهم ، ولو كان العدو هنا ما أقيمت كل هذه الاستحكامات المتينة •

وبينما كان البروفيسور « ايمرى » يعمل في الحفائر عام ١٩٥٩ عشر على هيكل حصان راقد على افريز الاستحكامات التي أقامتها الدولة الوسطى ، تحت كومة من رماد النار المتخلف من آثار احراق الحصن • وقد قدر المتحف البريطاني عمر هذا الرماد قائلا : ان الحريق حدث عام ١٦٧٠ قبل الميلاد • وهذا يتفق مع موعد غزو الهكسوس لمصر السفلى مما أدى الى اضعاف قوة مصر وهيا الظروف أمام الجنوبيين للاستيلاء على حصن « بوهن » وغيره من الحصون • على أنه لم يكن للخيول أى أثر بمصر قبل عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ، ومن ثم ندرك ما كان لها من أثر قوى في نجاح حملة الهكسوس على مصر •

وكذلك وجه البروفيسور « ايمرى » عنايته لدراسة مدينة «بوهن» نفسها تحت الحاح مدير الآثار السودانية ، وذلك لأنها من أولى البقاى التى سوف يغمرها ماء السد العالى •

ومما يدعو الى الدهشة أن « ايمرى » أوضح أن من بين ما عثر عليه فى هذه المدينة التاريخية وثائق لرجال المخابرات مدونة على ورق البردى منذ ٣٩٠٠ سنة • ويحاول المتحف البريطانى جمع بقايا هذه الوثائق ، اذ يعتقد أنها رسائل متبادلة بين حكام مصر ولانهم فى النوبة • ومن يدري ؟ فقد ينطوى تحت هذه الوثائق كثير من الاسرار ، ولهذا ناشدت حكومة السودان هيئة اليونسكو أن تسعى لدى الحكومات



والمنظمات الدولية والهيئات العلمية فى مختلف البلاد لتمديد المساعدة
لصيانة ، أو تسجيل ، هذه الآثار قبل أن يغمرها الماء الى الابد .

- ٤ -

لقد عثر كويبل J.E.Quibell ، وهو يقوم بالتنقيب عام ١٨٩٥ ،
على مقبرة من الدولة الوسطى تحت معبد الرمسوم ، وعلى وثيقة هامة من
أوراق البردى تضم قائمة بأسماء الحصون التى أقامها الفراعنة فى بلاد
النوبة . كان من بينها حصن « بوهن » ، يليه حصن « أيكن » ، على مسافة
ثلاثة أميال جنوب بوهن . وهى على سفح جبل الشيخ سليمان . وفى
المكان الذى حدده الانريون لحصن « أيكن » ، القديم قرية « كور » ، الآن
وقد يثبت البحث أن « كور » هى « أيكن » نفسها وأن الآثار كلها عبارة
عن مخزن محصن وله ميناء ترسو عنده السفن الكبيرة ، لان « كور »
قرب الشلال الثانى . واذن فالسفن الكبيرة كانت تفرغ حمولتها فى
قوارب يجرها الرجال عبر الشلال مسافة مئتى ميل فيما وراء الحدود
حتى « كرمة » وفى « كرمة » تم عملية عكسية ، وهى أن بضائع
الجنوب تشحن فى القوارب لتعود بها الى « أيكن » حيث تنقلها السفن
الكبرى الى مصر السفلى .

وإذا تحدثنا عن « ايكور » و « كور » فلا ننسى « مينارتى »
« ودور جونارتى » وهى من بقايا الدولة الوسطى فى مصر . وعلى بعد
منها « دابنارتى » ويقابلها على الضفة الأخرى للنيل حصن « مريجسة »
وتقوم « مريجسة » على تنوء صخرى ، وهى حصن قوى فى موقع طبيعى
منيع . هى وحصن « دابنارتى » الذى يقابلها على الضفة الثانية يستطيعان
التحكم فى مجرى النيل تحكما تاما فى هذه البقعة ، ويحولان دون مرور
التجارة .

وفيما بين الاسوار بقايا معبد حجرى عثر المسبو « هنرى ليونز » على
اسم « سنوسرت الثالث » منقوشا عليه .

كذلك عثر « ريزنر » على عمود من الصخر نقش عليه اسم
« رمسيس الاول من الاسرة التاسعة عشرة » .

ونستطيع أن نستنتج من كل ذلك أن « سنوسرت » هو الذى بنى
المعبد والحصن ، وأن « رمسيس الاول » قام باصلاحه أو أجرى فيه
بعض التعديلات . وقد عثر « ريزنر » على بعض الاحتمال الصلصالية وقد
كتب عليها : « الاله الطيب - سيد الارضين - سنوسرت الثالث - ختم
المخزن الكبير » .

ويقول أحد خبراء الآثار الموثوق بهم : ان هناك حصنا آخر من
آثار الدولة الوسطى عند « جماعى » . و « جماعى » هذه فى رأس قائمة
المناطق الاثرية المطلوب دراستها وتسجيلها ، لأن فيها مجموعة من المقابر
الاثرية التى تمتد حتى العصر المسيحى . وتبلغ المسافة بين هذا المكان
وحصن « شلفق » نحو تسعة عشر ميلا ، وليس من المعقول أن يكون
المهندسون العسكريون فى مصر الفرعونية قد تركوا هذه المسافة الواسعة
من غير تحصين فتنزل القوافل دون حماية لمسافة طويلة ، فالذى يستنتج
من نظام اقامة الحصون هو أنها تقام بحيث يستطيع كل منها أن يتبادل
الاشارات مع الحصن الذى يليه ، ليتمكن تقديم الامدادات اللازمة له عند
الحاجة . ولا ندرى شيئا حتى الآن عن نظام الاشارة عند الفراغة ، لكن
الاعتقاد السائد أنه كان لديهم مثل هذا النظام ، وربما كانوا يستخدمون
الاشارات الشمسية .

على أننا سوف نبحت الآن عن حصن ، أو محطة ، فيما بين « جماعى »
و « شلفق » :

فى عام ١٩٠٠ كان ثلاثة من الاثريين الالماني وهم « بوركاردت »
و « شيفر » و « شتيندورف » يرسمون الخرائط الباقية على جزيرة
« أوراناتى » على مسافة أربعة أميال من « شلفق » وفى أثناء ذلك عثروا
على عمود من الجرانيت هو صورة مطابقة لعمود آخر عثر عليه قبل ذلك
الأثرى الألمانى « لبيسوس » فى حصن آخر . والشئ المهم فى هذا العمود

هو أنه وجد منقوشا عليه اسم « خسف يونيو » وهذا الاسم هو الاسم الذى وجد ضمن قائمة أسماء الحصون التى عثر عليها فوق احدى ورقات البردى فى الرمسيوم • ومن هنا أدرك « بوركاردت » وزملاؤه أن خراب « أوراناتى » - بقايا حصن بناه « سنوسرت الثالث » وهو الجدد الأكبر « لسنوسرت » الذى بنى حصن « بوهن » •

لقد كان منقوشا على العمود الذى اكتشفه الاثرى الالماني « ليسيوس » : « صد الترجلوديت » ، وقد كتب الجغرافى « سترابون » ان « الترجلوديت » و « البلمى » و « النوبا » و « الميجابارى » قبائل اثيوبية تقطن فيما وراء اسوان ، وهى قبائل رحالة قليلة العدد وليست ذات بأس فى الحرب ، كما يظن البعض ، ولكنها جماعات من قطاع الطرق تهاجم من ليست لديه وسائل دفاعية • كل هذه أدلة على أن « أوراناتى » هى المكان الذى بنى فيه « سنوسرت الثالث » حصنه •

ويدو لنا أن هذه القبائل النوبية ، أو الاثيوبية كما يقول « سترابون » • كانت مثرة للاضطرابات مما اضطر الفراعنة الى بناء سلسلة من الحصون فى النوبة ، وانها فى ذلك كقبائل البانان على الحدود الشمالية الغربية للمهد ، فكثيرا ما أفلقت البريطانيين فى هذه المنطقة •

و « أوراناتى » على مسافة قصيرة من قلعة « سمنة » عند الحدود بين مصر القديمة والنوبة • وهى حصن منيع يقول عنه « ريزنر » : انه لم يكن فى استطاعة القبائل النوبية مطلقا أن تستولى عليه بالقوة ، وعلى مسافة سبعة وثلاثين ميلا من وادى حلفا وبوهن تنتهى حدود الدولة الوسطى • وهنا يشق النهر مجرى ضيقا بين صخور « النيس » الصلبة ، حتى ان المجرى ليضيق الى أن يبلغ ١٣٠٠ قدم فقط • وعند هبوط النيل تسد صخور « النيس » مجراه ولا تترك غير ممر مائى وسط المجرى لا يزيد عرضه على ١٣٠ قدما ، وهنا وجد الفراعنة الموقع المثالى لاقامة بوابة بين ملكهم وبين الجنوب وفى هذا المكان أنشأ « سنوسرت الثالث » أهم القلاع المصرية وهما قلعة « سمنة » على الشاطئ الغربى للنيل وقلعة « قمة » على الشاطئ الشرقى وهما معا تشرقان على النهر اشرافا كاملا •

وفى قلعة سمنة مصبدان يرجع تاريخهما الى ما قبل الدولة الوسطى ولكن أحدهما يقوم على الاساس الذى بناه « سنوسرت الثالث » وكان بناؤه للاحتفال بالانتصار على « الترجلوديت » وهم من القبائل السود (الاثيوبية) التى تقطن فى الجنوب ، وربما أراد بذلك أن يخلد ذكرى انتصار حملته المجيدة التى أرسلها لتأديب الاثيوبيين فى السنة السادسة عشرة من حكمه .

وقد خلد « سنوسرت » اصلاح احدى القنوات بالعبارة التالية :

« السنة الثامنة من حكم صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى سنوسرت الخالد لقد أمر جلالته بتجديد القناة ، وجعل اسمها « جميلة » هى أعمال سنوسرت الخالد » وكان ذلك وقت أن صعد جلالته فى النيل لتأديب الكوشيين » .

وفى أربعينات القرن الحالى عثر الأثرى الالماني « ليسيوس » على عمودين فى « سمنة » ولهذين العمودين قيمة أثرية كبيرة لانهما يوضحان حدود الامبراطورية المصرية فى ذلك العهد واتجاهها الى تهدئة القبائل المقيمة فى الجنوب فالعمود الاول يقرر أن هذا المكان هو الحد الجنوبي للبلاد فى السنة الثامنة من حكم صاحب الجلالة « سنوسرت الثالث » وأنه لا ينبغي أن يقوم « النهى » فى الجنوب باجتيازه برا أو عن طريق النهر وذلك باستثناء أولئك المرخص لهم فى الاتجار مع « أيكن » ويجب أن يلقي « النهى » كل رعاية ومعاملة طيبة ، ولكن يجب ألا تنتقل سفنهم الى ما بعد « سمنة » شمالا .

والعمود الآخر الذى عثر عليه « ليسيوس » فى « سمنة » لا يقل أهمية من الناحية التاريخية عن العمود الأول . ولقد وجد مكتوبا على هذا العمود ما يلى :

« أنا الملك وأمرى مطاع »

« الفرار خلق الجبان ، وليس رجلا ذلك الذى يقبل الهزيمة على أرض الوطن ، ويسلم نفسه أسيرا للعدو » .

« هكذا يخسر » النهى » - أى سكان الجنوب - على وجهه وإذا ما هوجم فانه يتجنب مواجهة المهاجم ، وإذا طورد ولى الادبار » •
« والنهى لا يتحلى بالشجاعة ، فهو رعديد جبان ذليل ، هذا رأى جلالتي فى النهى ورأى لا يخطئ » •

ويبدو لنا أن هذا تفاخر لا يقوم على أسس قوية اذ أنه لو كان سكان الجنوب على هذه الدرجة من الضعف والمذلة ، فلماذا بنيت الحصون القوية على حدود بلادهم ؟ ••

لنستمع الى الملك مرة أخرى حيث يقول :

« لقد سبيت نساءهم وأسرت رجالهم » ••

« وبلغت آبارهم » ••

« وذبحت ثيرانهم وجنيت محصولهم » ••

« وأشعلت فيها النيران » ••

« والآن ، انظر •• ان جلالتي أقام تمثالا لجلالتي على الحدود لأضمن لكم الرخاء ، وأمكنكم من الدفاع »

أما قلعة « قمة » المواجهة لقلعة « سمنة » على الجانب الآخر من النهر فقد شيدت من صخور بيض جلبت من « شعت » ويبدو أن (شعت) هذه كانت قريبة من « قمة » وإذا كان جنود « سنوسرت الأول » قد استطاعوا بلوغ « شعت » واخضاعها وجلب الاحجار منها ، فمعنى ذلك أن هذا الملك هو الذى فتح التوبة فى أثناء حكم الاسرة الثانية عشرة ، ولكن حفيده « سنوسرت الثالث » هو الذى جنى ثمار فتوحه فرفع الى مصاف الآلهة •

ولتعد مرة (ثانية) الى منطقة الحدود فنقول : ان البشة الالمانية الكبرى التى جاءت بين سنتى ١٨٤٢ و ١٨٤٥ تحت رئاسة « لبيسوس » قد عثرت على نقوش هيدوغليفية فوق بعض الصخور فيما وراء « سمنة » ومن بين ما كتب فوق هذه الصخور ما يلى :

« مستوى النيل فى السنة الخامسة والعشرين من حكم جلاله الملك امنمحت الذى يمنح الحياه والهدوء والثروه على الدوام مثل الشمس » وهذا يدلنا على مدى ارتفاع منسوب مياه النيل فى عهد « امنمحت الثالث » من ملوك الاسره الثانيه عشره • ولكن الذى حير الاثريين هو أن العلامه التى تدل على مستوى ماء النيل ترتفع ٣٦ قدما عن المعدل الحالى للنيل وقت الفيضان • وليس هذا أمرا غريبا فقد سجلت الأسرتان الثانيه عشره والثالثه عشره مقياس للنيل ترتفع ٢٤ قدما عن معدله الحالى وقت الفيضان •

ولقد كثرت تعليقات الاثريين والجيولوجيين لهذه الظاهره ، فقال بعضهم : انها نتيجة زلزال أحدث التواء فى القشره الارضيه وأثر على مجرى النيل فى هذه المنطقه •

أما السير « وليام ويلكوكس » المدير السابق للمخازنات فى مصر فقد كتب عام ١٩١٣ يقول : يرجح أن « امنمحت » حاول حجز ماء النهر أملا فى إنشاء خزان ، وأن الذين جاءوا من بعده تخلوا عن الفكره ، وبمرور السنين عاد النيل الى مجراه الأصلى •

وهناك اعتقاد لا يزال قائما بين الكثيرين ، هو أن الفراعنه فكروا فى مشروع قريب الشبه بالسد العالى ، الذى تقوم مصر بإنشائه الآن •

وفى عام ١٩٠٧ زار العلامه « جيمس هنرى برستد » حصون مصر الاماميه فى النوبه ، وكان مع « برستد » فى زيارته لقلعه سمته « دى جارس ديفز » وهو من خير من سجلوا النقوش الفرعونيه ، وقد لاحظ « ديفز » فى أثناء زياره قلعه « قمه » المواجهه لقلعه « سمته » على الجانب الآخر من النهر ، آثار حفر على الصخور ، وأن هذه الصخور منخفضة نحو قدمين عن مستوى الفيضان فى عهد مصر الفرعونيه ، واستنتج « برستد » من ذلك أن قلعه « قمه » وقت فيضان النيل فى عهد الأسره الثانيه عشره كانت فوق جزيره ، وأنه من المحتمل أن الحاجز الجرايئى كان أكبر فى عهد هذه الاسره • وهنا وقف « برستد » حائرا

فى تعليل هذه الظاهرة وقال ان البحث فى هذه الظاهرة يحتاج الى خير جيولوجى .

وقد وجد هذا الخير فى شخص الجيولوجى « جون بول » لقد ذهب « بول » الى قلعة « سمنة » عام ١٩٠٢ لدراسة « سد سمنة » وقد كتب « بول » يقول : ليس من الصعب حجز ماء النهر بوضع كتل صخرية ثقيلة فى مجرى الأوسط ، ولكن ليس أمامنا دليل على ذلك بخلاف ما قرره السير « وليام ويلكوكس » فى كتابه « الرى فى مصر » ، والحفر الصخرية المنتشرة على طول الحاجز المائى تثبت شدة تأكل الصخر وقت الفيضان وقد تتداخل الحفر الصخرية بعضها فى بعض أحيانا مما يسبب انهيار الصخر ، يضاف الى ذلك ان الصخور ، التى لم يمسسها الفيضان تتآكل وتتفتت بسبب تعاقب الحر الشديد والبرد الشديد عليها نهارا وليلًا .

ومضى « بول » يقول : ان المجرى الاوسط العميق المشاهد فى النيل عند « سمنة » لا يرجع الى وجود صخر لين ، بل الى عوامل التآكل الصخرى وأكثر جهات المجرى عمقا تحمل قدرا أكبر من الماء المحمل بالغرين (١) .

وهنا يجرى « بول » عملية حسابية فيقول : ان عملية التآكل بلغت ثمانية أمتار فى أربعة آلاف سنة ، فى حين تبلغ مساحة منطقة الحاجز المائى مائة ألف متر مربع ، ومعنى ذلك أنه فى كل سنة قد أزيل من الصخر مائتا متر مكعب بفعل التآكل وهذه الكتلة الصخرية تزن خمسمائة طن فى حين يبلغ تصريف ماء النيل السنوى عند « سمنة » مائة مليون طن من الماء ، ومعدل سرعة جريانه ٥٠ كيلو متر فى الساعة فى وقت الفيضان ، و $\frac{1}{4}$ كيلو متر فى الساعة وقت انخفاض النيل ، أى أن هذه السرعة تستطيع نقل الحصى ، بل تستطيع أحيانا نقل قطع من الصخر تبلغ حجم رأس الانسان ، يضاف الى ذلك أن الغرين وتراب

الصخر العالق بالماء يترسب كل سنة فوق الحاجز بمعدل ستين مليون طن
•• ومن ذلك يستنتج أن ازالة خمسمائة طن من الصخر كل سنة لم يكن
شيئا ممكنا فقط ، بل شديد الترجيح •

هكذا يستخلص « بول » من دراسته ان انخفاض منسوب النيل
بمقدار ٢٤ قدما عند قلعة « سمنة » منذ الاسرة الثانية عشرة حتى اليوم هو
نتيجة طبيعية لفعل التآكل واذن فليس هناك ما يعزز فكرة اقامة سد في
«نصور القديمة في هذه المنطقة » ولكن « وليام ويلكوكس » عاد في عام
١٩١٥ فأكد أن أمنمحت حاول التحكم في ماء النهر في هذه المنطقة ••

« ٥ »

لقد عثر على بعض أوراق من البردى تتصل بموضوع قائمة الحصون
التي أقيمت عند منطقة الشلالات في مصر الفرعونية • وقام بدراسة هذه
الأوراق الأثرى « بول سمدرز » فثبت من الدراسة أن هذه الوثائق
مجموعة رسائل من قلعة « سمنة » وغيرها من الحصون الاخرى عام ١٨٤٤
قبل الميلاد في عهد الملك « امنمحت الثالث » الذي حكم بعد « سنوسرت
الثالث » • وكانت هذه الرسائل موجهة الى موظف كبير في العاصمة
المصرية « طيبة » وتوضح تلك الرسائل الاعمال اليومية التي كانت تجرى
في هذه القلاع الفرعونية المقامة في النوبة ، فهي تتحدث عن تحركات
النيهى والميجو (النوبيين) وتنقلات البدو في الصحراء والقبض على
المشبهين منهم واستجوابهم ، أى انها صورة دقيقة للمخابرات العسكرية
في تلك المراكز الامامية •

ويبدو من قراءة بعض تلك الرسائل أن الحاميات المصرية في القلاع
الجنوبية كانت تستخدم حرسا من النوبيين تحت امره ضباط مصريين ، بل
ان الجانب الاكبر من رجال الحامية كانوا من أبناء النوبة •

وقد جاء في احدى هذه الرسائل ما يلى :

« لقد عثرنا على رجلين وامرأتين من الميجو (النوبيين) وباستجوابهم

ذكروا انهم قادمون لخدمة • البيت الكبير - أى الفرعون - وقد سألناهم :
ماذا يجرى فى الصحراء من حوادث ؟ فقالوا : لا شئ ، ولكن الصحراء
تموت جوعا ... •

ويتضح من هذا الاستجواب أن الموظف المصرى كان يحاول أن
يعرف : هل هناك تمرد فى الصحراء ؟ ••

وقد واصل الاثرى (بول سمنرز) دراسته هذه الرسائل الشائقة ،
ولكنه مات قبل ان يستكمل قراءتها ، ولولا ذلك لقدم لنا صورة واضحة
عن النظام السياسى والاقتصادى الذى وضعته الدولة الوسطى لبلاد النوبة •
ولكن التجارة عند (سمنة) كانت تجرى على نطاق ضيق وفى منطقة
صحراوية قليلة السكان ، أما التجارة على نطاق واسع فكانت تتم فى الجنوب
حيث يكثر السكان وتتوافر الزراعة والحاصلات الافريقية من عاج وأبنوس
وصمغ وأخشاب ثمينة • وهذا المكان الثانى اكشفه (ريزنر) عند (كرمه)
وهى على مسافة مائتى ميل جنوب (سمنة) وفى هذه المنطقة يكثر رجال
• المجموعة ج • وتظهر صور الماشية على الصخور ، وأكوام الصخر التى
تمثل المقابر على جزيرة • سى • •

وهناك بناءان ضخمان من اللبن يطلق عليهما الالهاتى اسم « الدفونة »
وقد أقيما فى عهد الملك « امنمحت الأول » أو الثانى : أحدهما معبد
والآخر حصن ومتجر • وقد عثر • ريزنر • فى « الدفونة » على أدوات
لصنع الخزف وصقله ، وزخارف من الميكامسابع من الكوازتر ، وكذلك
عثر على اختام الصلصال من عهد الهكسوس فى مصر •

وعثر • ريزنر • أيضا على مقابر ضخمة ثبت له من دراستها أن
الرجل اذا مات دفنت معه أسرته وخدمه جميعا قربانا للآلهة ، وليس لذلك
مثيل فى مصر الفرعونية ولكن هذه المقابر تذكرنا بذلك التقليد الهندى
المعروف باسم (ساتى) والذى أبطل عام ١٨٢٩ ، وكان هذا التقليد يقضى
بأن تحرق الارملة نفسها مع زوجها الراحل وكان الميت يدفن بملابسه
وسلحه كله وأدوات زينتته • وبجانبه مروحة من ريش النعام وصندل من

الجلد الخام ، وكانت الجثة تغطى بجلد الثور وبجانبا عدد من الكباش
لا يقل عن اثني عشر كيشا •

ان هذا المشهد البشع يقدم لنا صورة مخيفة عن الطريقة التي كان
يضحي بها الاحياء من حول الميت ، لقد كان هؤلاء يدفنون احياء وهم في
أتم صحة • وقد ظهرت علامات الفزع على وجوه البعض ، وان كانت هناك
وجوه أخرى قد استسلمت لمصيرها المحتوم • ولم يكن هناك تحنيط ولا
أدوات للتحنيط ، كما هو الحال في مصر الفرعونية •

وأشد المناظر بشاعة مشهد الفتيات الصغيرات وقد زحفن الى ما تحت
فراش الميت لعلهن يجدن وقاية من المصير الذي يثير الرعب ، فلا يجدن
الا الموت اختناقاً بعد أن ينهال التراب على من في المقبرة •

ويقول « ريزنر » : ان تشييع الميت الى هذه المقبرة المربعة كان يتم
وسط العويل والصراخ الذي نشاهده حتى اليوم بين سكان وادي النيل ،
فإذا ما حانت ساعة الدفن أخذ الكاهن يرتل أناشيد دينية ، ثم يعطى إشارة
فيبدأ حملة « المقاطف » بملئها بالتراب ، وبعد فترة وجيزة تمتلئ غرفة
الميت ودھليز القربان بالتراب ، فيموت أعضاء أسرة الميت وأتباعه
مختنقين •

لقد كانت العادات في « كرمه » تختلف عنها كثيرا في مصر ، وذلك
لعدم اهتمامها بالحياة الانسانية اهتماما كاملا •

ويقول « ريزنر » : ان عادة دفن الاحياء مع الميت قد اختفت من
مصر منذ عصر ما قبل الاسرات ، ويبدو أن ذلك راجع الى ما في هذه العادة
من استنزاف للقوى البشرية ، والى معرفة الكتابة والنقش اللذين استعاض
بهما عن دفن الاحياء مع الميت • ويعلل « ريزنر » بقاء هذه العادة « في
كرمه » ببعدها السحيق عن مصر وقربها من الهمج •

لقد كانت « كرمه » مستعمرة مصرية وربما انتقلت الى الحكام
المصريين في هذه المستعمرة عادة دفن الاحياء مع الميت ، بحكم الجوار
وتقليد الجماعات التي تعيش في المنطقة ، يضاف الى ذلك أن مستوى المهارة

فى التخطيط قد هبط الى حد كبير فى عهد الدولة الوسطى ، وأن الرحلة الشاقة الباهظة النفقات من « كرمه » الى طيبة جعلت نقل الميت الى مصر لتخطيطه أمرا غير ممكن من الناحية العملية . وكان المعتقد أن الروح تستطيع القيام بالرحلة من « كرمه » الى مصر فى سرعة وأمان ، ولذلك وضع الإعلان فى قديمى الميت والبس ملبسه كاملة ، ووضع وجهه فى اتجاه مصر ، ولما كان المعتقد أن أهل الميت وحاشيته سوف يقاسون الأهوال بين القبائل المتوحشة فى الجنوب صار من الأفضل أن يدفنوا أحياء مع عائلهم تسافر أرواحهم الى مصر فى حمايته .

ويقول « ريزنر » : انه عثر على مقابر فى « كرمه » لأمرء مصريين من بينهم الأمير « حب زيفا » أحد أمرء أسبوط وزوجته « سيخاموى » . و « حب زيفا » معروف لعلماء الآثار المصرية ، لان له فى أسبوط مقبرة لا تضم جثته ولا أدواته ، وانما أقامها كهنة أسبوط لصيانة الروح « كا » . وكان « حب زيفا » كان يعلم أنه سوف يدفن غربيا عن بلاده .

ويستطرد « ريزنر » قائلا : ان « حب زيفا » هذا كان حاكما على « كرمه » من قبل الفرعون « سنوسرت الاول » أو « امنمحتت الثانى » . وكان ذلك فى نحو عام ١٩٤٠ أو عام ١٨٨٠ قبل الميلاد . ويعتبر « حب زيفا » أول حاكم « لكرمه » بالطريقة الهرمية التى كانت سائدة هناك .

ويخالف البروفيسور « آركل » رأى « ريزنر » فيقول : ان المقابر التى اكتشفت فى « كرمه » ليست لامراء مصريين كانوا حكاما على البلاد من قبل فرعون مصر ، وانما هى مقابر لسكان المنطقة الوطنيين ، وهم الكوشيون وأن « كرمه » لم تكن مركزا لنائب الملك فرعون مصر ، ولكنها كانت محطة تجارية لتبادل التجارة بين مصر وسكان الجنوب .

لقد أسهبنا فى الحديث عن « كرمه » وما حولها مع أنها بعيدة عن موضوع السد العالى ، ولكنى أود أن أقدم للقارئ صورة واضحة عن منطقة السد وما يحيط بها وما يرتبط بها من الناحية التاريخية ومن ثم رسم صورة ذهنية واضحة لبلاد النوبة كلها .

بينما كان المسيونيون يطورون أول مدينة اغريقية ، حلت بمصر كارثة كان لها آثارها السيئة في النوبة . فقد غزا الهكسوس مصر ، وسقطت الأسرة الثالثة عشرة المصرية وحل بمصر عصر مظلم بدأ من عام ١٧٨٠ الى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ، وهو عصر لم يستطع علماء الآثار المصرية أن يحدثونا بشيء عنه . غير أن الحفائر النوبية تبيننا بأن الأمور كانت تسير في النوبة سيرا معتادا ، ثم جاء وقت هاجم فيه الجنوبيون الحصون المصرية فأحرقوا بعضها وانسحب المصريون من البعض الآخر . ويعتقد بعض المؤرخين أن الهكسوس واصلوا تبادل التجارة مع سكان الجنوب ، واستدلوا على ذلك بوجود أختام هكسوسية في « كرمه » . ولكن يبدو أن من الصعب قبول فكرة أن الهكسوس استطاعوا أن يجتاحوا النوبة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، في حين كان يعترض طريقهم أمراء طيبة في مصر العليا .

ويعتقد البروفيسور « آركل » أن الصراع بين أمراء طيبة والهكسوس أضعف قبضة مصر على النوبة مما أتاح الفرصة أمام سكان الجنوب للاستقرار وقبول اساليب مصر الحضارية . يضاف الى ذلك أن كثيرا من مرتزقة « الميجو » وهم قبائل نوبية ، كانوا جنودا في الجيش المصري .

وبدخول الهكسوس مصر عاد هؤلاء الجنود الى النوبة فكانوا عناصر لنشر الحضارة المصرية بين سكانها ، مما سهل على المصريين إعادة احتلال النوبة بعد طرد الهكسوس .

وفي سنة ١٩٠٨ كان « هوارد كاتر » ينقب عن الآثار المصرية بتكليف من اللورد « كارنارفون » فعر في معبد الكرنك ، على لوحة حجرية أدرك منها المؤرخون أن الملك « كاموس » من ملوك الأسرة السابعة عشرة واصل حرب التحرير ضد الهكسوس التي بدأها سلفه « سنحيتي رع »

وفى عام ١٩٥٤ عثر الدكتور حماد ، مقتش آثار فى الأقصر ، على حجر كبير فى قاعة تمثال « رمسيس الثانى » . وقد اكتشف أنه لوحة سطر عليها الملك « كاموس » قصة كاملة لصراعه ضد الهكسوس . وفى هذه اللوحة يوجه كاموس حديثه الى أبو فيس ، ملك الهكسوس فيقول :

« ان أبناء هزيمتك سوف تفقدك مكاتك فى أرضك ، ولقد أصبحت من الضعف بحيث لا تستطيع أن تتخذنى تابعا لك ، بل انك لا تستطيع أن تحدد أين يكون النزال بينى وبينك . وحينما يزحف جيشى فانك ستولى الأدبار ، وسيؤدى الفزع بنساء أفاريس ، هواره ، الى العقم ، وسوف يتجمد الدم فى عروقكم حين تسمعون صيحات رجالى »

ويمضى « كاموس » فى قصته فيقول : لقد حاصرت عاصمتكم « هواره » من البر والبحر وشاهدت رجالكم ونساءكم يختلسون النظر من وراء الابواب كالجراد ، لقد جئت الى هنا بارادة آمون . ولن أسمع لكم بشيئ أفادكم على أرض وطنى .

« أيها الاسيويون التعسرون .. سوف نشرب الخمر من كرومكم بعد أن صنعته أيد أسيرية قطعها اربا اربا لادمرن بيوتكم ولأقطعن أشجاركم ولأسين نساءكم ، ولن أبقى لكم زرا ولا ضرا ولا مالا . »

والواقع أن كل هذه العبارات لم تتجاوز معنى التهديد ، فالهكسوس لم يخرجوا من مصر الا فى عهد خلفه .

أما أفاريس ، أو هواره فقد افترض علماء الآثار المصرية وجودها قرب مدينة بورسعيد الحالية ، ذلك بأن أحد المؤرخين ، الذين عاشوا بعد عهد الهكسوس بألف وثلثمائة عام ، قال انها على ساحل البحر . ولكن لا يوجد أى أثر لمثل هذا المكان .

ولكن نستمتع الى « سترابون » حين زار قصر « اللايرات » الذى بناه « امنمحت الثالث » من ملوك الاسرة الثانية عشرة ، اذ يقول : « هناك بحيرة مورييس العجيبة التى تشبه البحر فى اتساعها ولونها ، وشواطئها تشبه سواحل البحر »

وبحيرة موديس منخفض طبيعي فى غرب النيل ، وبقاياها اليوم هى
ركبة قارون فى الفيوم . ولقد قام « امنمحت » باعادة حفر المجرى
المنخفض الطبيعى الذى يربط البحيرة بالنيل ، وجعل منها بحرا داخليا
كبيرا يمتص مياه الفيضان جميعها .

ويقول « سترابون » : انه رأى الماء يعود من البحيرة الى النيل فى
القناة نفسها وقت هبوط منسوبه ، وبذلك أمكن استخدام الماء العائد من
البحيرة فى رى الأرض . وقد أنشأ « امنمحت » بوابات ذات عيون فى
مدخل القناة وبهذه البوابات يستطيع المهندسون التحكم فى المياه الداخلة
اليها أو الخارجة منها .

وأغلب الظن أن هذا هو مكان « هواره » فهى على « شاطئ البحر »
وهى تتحكم فى خيرات الدلتا بالبوابات ذات العيون ، والاستيلاء على
هواره معناه القضاء على العدو بالموت جوعا أو غرقا .

ولنرجع الى التسمية ، فمدينة « أفاريس » كان اسمها فى عهد
الهكسوس « هاء أوار » ومن السهل تحويل الاسم من « أفاريس » الى
« هافاريس » ثم الى « ها - فار » ثم الى « ها - أوار » واليوم توجد بلدة
« هواره » فى المكان الذى شيد فيه قصر « اللابيرات » منذ القدم ، ومن
المؤكد أن هذا هو المكان الذى كان الملك « كاموس » : يريد أن يستولى
عليه حين هدد الهكسوس .

ويقول السير « وليام ويلكوكس » مدير الخزانات السابق فى الحكومة
المصرية : ان السنوات السبع العجاف والسنوات السبع السمان الواردة
فى قصة يوسف ، يمكن تفسيرها فى ضوء بحيرة موديس وأفاريس
(هواره) والبوابات المتحكم فى ماء الفيضان . ويقول « ويلكوكس » :
ان يوسف وفد الى مصر ، وانضم الى حاشية أحد ملوك الهكسوس فى
مصر السفلى ، فى حين كان أمراء طيبة يقبضون على السلطة فى مصر
العليا . ويبدو أنه حين أراد أمراء طيبة مهاجمة ملك الهكسوس ورأى
الرؤيا الواردة فى الكتب المقدسة فسرها يوسف تفسيراً علمياً ، فأشار على

الملك بتخزين القمح للسنوات العجاف التي قد يتحكم فيها المهاجمون
فى البوابات •

وهكذا استولى أمراء طيبة على هواره وتحكموا فى مياه النهر وبدأت
السنوات العجاف • ثم استعاد الهكسوس « هواره » وجاءت السنوات
السمن • ولما استولى الطيبون نهائيا على المكان دب اليأس الى قلب
الهكسوس ، وفروا من البلاد •

ثم جاء ملك لايعرف يوسف •

ويبدو أن هذا الملك هو «أحمس» أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة ،
وهو الذى طرد الهكسوس من مصر عام ١٥٧٧ قبل الميلاد •

وتفسير « ويلكوكس » تفسير جميل ، ولكن يحسن بنا أن نعود الى
العمود الحجرى الذى وجده الدكتور حماد فى معبد الكرنك ، وقد كتب
عليه الملك « كاموس » قصته ، وذلك كى تصل الى الموضوع الذى يربط بين
غارات أمراء طيبة النيلية على « هواره » وبين الشئون القائمة فى النوبة حين
ذاك •

يواصل « كاموس » قصته فيقول : ان رجاله استطاعوا قطع الطريق
على رسول من رسل « أبوفيس » ملك الهكسوس حيث كان الرسول
ذاهبا عن طريق الصحراء جنوبا الى بلاد كوش ومعه رسالة ، وسير الرسول
عن الطريق الصحراوى وتجنبه وادى النيل يدل على أن الوادى فى مصر
انلميا كان حين ذاك فى قبضة أمراء طيبة ، واذن فليس من المحتمل أن
الهكسوس كانوا يسيطرون على النوبة كما يدعى البعض •

ويقول « كاموس » فى غيظ واشمئزاز : هذا ما سطره ملك
الهكسوس الى أمير كوش فى رسالته :

« تحية من » « أبوفيس » الى أمير « كوش » ألم تر ما فعله الامير
الصرى ضدى ؟ انه يزاحمنى فى بلادى مع انى لم أهاجمه كما فعل بكم •
لقد استقر رأيه على أن يغتصب منى ومنكم بلادنا ، ولتد أضرب بلدنا ضررا

بليغا ، تقدم الى شمالى الوادى ولا تحف • انى أشاغله الآن ولن تجدمن.
يعترض سبيلك فى مصر العليا • وسوف أواصل مشاغلتك حتى تقدم ، وحين
ذاك نقسم مدن مصر فيما بيننا ونعيش فى رخاء وسعادة •

ومن هنا يمكن استنتاج أن الاختام الهكسوسية التى وجدت فى
« كرمه » فى الجنوب جاءت عن هذا الطريق ولهذا الغرض نفسه •

ان عمود الكرنك يثبت لنا أن الهكسوس لم يكونوا يحكمون النوبة.
كما يثبت أنه كان فى النوبة مملكة على درجة من القوة تمكنها من مساعدة.
الهكسوس ضد أمراء طيبة الثائرين فى مصر العليا •

ولقد وجد اسم الملك « كاموس » منقوشا على الصخر قرب «توشكى»
ومن هنا يمكن القول بأن « كاموس » أغار على النوبة قبل أن يبدأ حرب
التحرير ضد الهكسوس •

ويحدثنا « كاموس » فى قصته أنه أعاد الرسول الى ملك الهكسوس.
ليخبره بما أعده له « كاموس » من حرب ودمار ، وأنه قد دمر اقليم سين
(أسوان) تدميرا تاما ، وأنه أرسل حملة الى الواحة البحرية حتى يؤمن
مؤخرته ، وقد يكون بذلك قد أراد قطع خطوط الاتصال بين الهكسوس
والنوبيين •

ويمضى « كاموس » فى سرد قصة عودته المظفرة الى طيبة فيقول :
« عدنا فى النيل نحو الجنوب ووصلنا الى اسيوط وقت الفيضان ، وقد عم
البشر كل الوجوه ، واكتسب جوانب النهر بالخضرة والتماء ، وفى طيبة.
خرج الرجال والنساء وكانهم فى مهرجان عظيم وأخذت النساء يعاتقن
بعضهن بعضا » •

« لتسجل تلك الاعمال العظيمة ، التى حققتها جلاتى ، على عمود »
وليقم هذا العمود فى معبد الكرنك فى طيبة ليقراء من بعدنا الخلف ••
على جزيرة « ساي » فيما وراء قلعة « سمنة » بقايا حصن قديم
ضخم ، ويقول البروفيسور « برستد » الذى زار هذا المكان عام ١٩٠٧ :

انه كان مقلدا لاحد فرسان النوبة فى المصور الحديثة ولكنه يقوم على
أنقاض حصن فرعون من عهد الدولة الحديثة وربما كان من عمل
« أحمس » أول ملوك الأسرة الثانية عشرة وهو الذى أغار على النوبة بعد
أن طرد الهكسوس من مصر السفلى • وقد أبلغنى المسئولون فى مصلحة
الآثار السودانية أن « سائى » سوف تكون ضمن الأماكن التى تفرمها مياه
السد العالى ، وفى هذا خسارة كبيرة ، لأن حفائر « سائى » لم تتم بعد ،
ولم تتحقق حتى الآن : هل الملك « أحمس » قد بلغها فى غارته جنوبا
على النوبة ؟ ..

وفى عام ١٩٠٧ ركب البروفيسور « برستد » زورفا وذهب لزيارة
« تانجور » فيما وراء « سمنة » وهناك فوق الصخر وجد كتابة أثرية جاء
فيها : السنة الثانية من حكم صاحب الجلالة تحتمس الأول – طال بقاؤه –
لقد مر جلالتى بهذا المكان فى طريقه للقضاء على أهل كوش المحتقرين –
وكان كاتبه العسكرى أحمس يعد السفن •

ويعتقد « برستد » ان احمس بلغ بأسطوله الضخم « تومبوس » على
مقربة من « كرمه » وأن « تحتمس » لم يزد على ما بلغه أحمس • ومع
ذلك فنحن نعتقد أن « تحتمس » قد قال الصدق حين قرر أنه بلغ مكانا
لم يبلغه أى فرعون قبله ، وهناك بعض آثار تدل على أنه سار جنوبا حتى
بلغ « مروى » التى أصبحت عاصمة للمملكة المروية عام ٥٠٠ قبل الميلاد •
واذا ثبت صحة ذلك ثبوتا تاما فمعناه أن مصر كانت على اتصال بأفريقية
السوداء •

وفى اثناء عودته تحتمس الاول الى مصر استخدم القناة التى سبق
أن شقها « سنوسرت الثالث » عند أسوان • وقد وجدت نقوش جاء فيها
ما يلى : « فى السنة الثالثة – فى الشهر الاول من الفصل الثالث – يوم ٢٢
– من حكم صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى تحتمس – طال بقاؤه
– أمر جلالتى باعادة حفر هذه القناة التى سدت مجراها الاحجار – وسار
فيها بمراكبه بعد أن ذبح أعداءه •

ابن الملك (نائب الملك)

(ثورى)

ان رحلة تحتمس الاول الى كوش تعد آخر رحلات الفراعنة الى هذه البلاد ، أما النقوش التى عثر عليها بعد ذلك ، وهى نقوش توضح تحطيم الفراعنة لقوات النوبيين ، فانها صور رمزية وضعت فى اللوحات لتقيم توازنا فنيا مع فتوح الفراعنة فى آسيا . ومنذ ذلك الحين أصبحت النوبة السفلى اقليما مصرية ، وصارت هى وبعض اجزاء كوش فيما يليها جنوبا تقوم بدفع الجزية بانتظام الى الخزانة المصرية ، وكان الفراعنة يعينون لهم فى هذه المنطقة نائب الملك فى كوش ويحمل لقب « ابن الملك » وكان مقره فى « معام » التى تقوم فى مكانها الآن غنية . ولا تزال هناك آثار كثيرة لم يتم كشفها بعد .

ومن حسن الحظ ان المنطقة فى أيد قديرة ، اذ يشرف عليها الدكتور ابو بكر من جامعة القاهرة ، ونحن فى انتظار انباء هامة منه .

ولما مات الفاتح العظيم تحتمس الاول عام ١٥٢٠ قبل الميلاد تمرد الكوشيون ومعه « مجموعة ج » وهى التى كانت تقطن فى النوبة السفلى ، ولكن « تحتمس الثانى » ذكرهم بأن قوة فرعون لم يصبها أى ضعف ، ثم أرسل اليهم حملة تأديبية كانت آخر العمليات العسكرية فى هذه المنطقة . ولما جاء حكم الملكة « حتشبسوت » كان عهدا عهد سلام فى هذه المنطقة ، واتسعت التجارة مع النوبة وكانت حتشبسوت مشتركة فى الحكم مع اخيها « تحتمس الثالث » فقد أقاما معبدا صغيرا فى قلعة « قعة » وأهدياه للاله « خنوم » وسنوسرت الثالث بعد أن رفع الى مصاف الالهة .

ويقول برستد وفيرمان : ان المناصب الكبرى فى النوبة كانت فى ايد

مصرية ، ولكن كان بجانبهم عدد من سكان البلاد المتمصرين يتولون بعض الوظائف ، أما الادارة الاقليمية فكانت فى ايدى النوبيين •

وهكذا نجد بين الاسرتين الثانية عشرة والعشرين نوعا من الحماية والادماج لاقليم النوبة • ولكن النوبة مع ذلك لم تصبح مستعمرة مصرية بمعنى أن المصريين لم يهاجروا للاقامة فيها كما أنهم لم يحاولوا طرد سكانها الاصليين ، وظلت النوبة فى نظر المصريين مركزا اماميا اجنيا يعمل فيه الجندى والتاجر ، ولا تزال هذه سمة من سمات سلالة الفراعنة ، فهم يلتصقون بمسقط رأسهم ويكرهون الانتقال الى خارجها وان كان ذلك اعالى نهر النيل •

ولقد كان من المعتاد أنه اذا توفى احد من المصريين ، الذين يعملون فى النوبة ، نقل جثمانه الى مصر ، ومن ذلك نستنتج أن المقابر التى اتخذت انطراز المصرى فى النوبة انما هى لنوبيين ، اتخذوا أسماء والقابا مصرية فى حين أن المقابر المزخرفة التى من الطراز الطبى نادرة جدا • ويرجع أن المقبرة الوحيدة من هذا النوع من مخلفات الاسرة الثانية عشرة • وهى للأمير « جيهوتى - حتب » وهى فى « دبيرة شرق » على مسافة تسعة أميال من وادى حلفا ، وهذا الامير النوبى قد اتخذ اسماء والقابا مصرية ، واتجه فى صلواته الى الآلهة المصرية ، وأهدى مقبرته الى سيدة الارضين الملكة حتشبوت •

وقد علق « سيف سيد مريرج » على هذه الظاهرة حين زار المنطقة عام ١٩٦٠ قائلا :

ان هذا القبر ونقوشه دليل قوى على أن حركة « تمصر » الزعماء النوبيين كانت قائمة وشديدة فى أثناء حكم حتشبوت وتحتمس الثالث ، ومنذ ذلك الوقت أصبح من المستحيل التمييز بين الحكام المصريين والنوبيين الذين دخلوا خدمة الفراعنة فى النوبة •

والمعابد التى اقيمت فى النوبة فى عهد الدولة الحديثة من الكنوز

الأثرية التي نخشى أن يغمرها ماء السد العالي ، وهي تندرج فى الضخامة ،
من مجرد نماذج صخرية صغيرة الى معابد ضخمة مثل معبد ابوسمبل •

وأحسن هذه المعابد من الناحية الفنية هو المعبد الذى أقامه « أمنحتب
الثانى » فى « عمارة » فى منتصف المسافة بين اسوان ووادى حلفا ، ولهذا
الملك نصب حجرى فى « عمارة » مدونة عليه أعماله المجيدة فى سورية
والنوبة ، فيه يبدى قوته الهرقلية الهائلة ، وكيف أنه استطاع أن يذبح
بيديه سبعة من الملوك • وقد علقت جثث ستة منهم على حصون طيبة ، أما
الجثة السابعة فقد أرسلت الى « نباتا » فى بلاد كوش وعلقت على أسوارها
الخارجية •

وقد استخدم هذا المعبد فيما بعد ليكون كنيسة مسيحية بعد أن غطيت
نقوشه بالملاط ، وأقيمت فوقها نقوش وزخارف مسيحية •

وقد استطاع حين زيارته للمعبد أن يكشف الزخارف المسيحية ،
فظهرت من تحتها كتابة أثرية دونها « هك نخت » الذى كان نائبا للملك
فى عهد رمسيس الثانى •

وعلى لوحة أخرى فى قدس الاقداس فى « عمادة » بنينا الملك
« أمنحتب الثانى » كيف أنه قام بزخرفة هذا المعبد الذى أقامه والده تحتمس
الثالث •

ويحدثنا ويجول أنه قرأ على سقف معبد « عمادة » ما يلى : « باللغة
الاغريقية » : هيرودوت شاهد واعجب •

لقد جاء « هيرودوت الى مصر عام ٤٥٠ قبل الميلاد ولا شك أنه قد
بهره جمال الفن المصرى الذى شاهده فى معبد « عمادة » •

وعلى مقربة من « عمادة » معبد صغير أقامه « تحتمس الثالث » وقد
آبدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة استعدادها لتقديره لمن يقدم عونا
ماليا لصيانة آثار النوبة ويجب أن تكون المعونة المالية قيمة بحيث تتناسب
مع أهمية الحصول على معبد فرعونى بأكمله •

ولا ننسى هنا ان نسجل كلمة عن أضرحة « ابريم » وقد زارها
« لبيوس » كما زارها البروفيسور « برستد » عام ١٩٠٦ • وقال
« برستد » : انها لم تكن مقابر تضم رفات اشخاص ، ولكنها وسيلة كان
حكام النوبة من المصريين يخلدون بها ذكراهم ، وذلك لانهم لم يكن فى
استطاعتهم أن يشيدوا معابد لحسابهم الخاص •

وقد كان من عادة نواب الملك فى النوبة أن يدونوا فوق جدران
هذه الاضرحة أعمالهم فى النوبة ، وبخاصة قدرتهم على جباية الضرائب
وتحصيل الجزية من زعماء النوبة ومن بين هؤلاء الحكام « سيتا » نائب
رئيس الثانى فى حكم النوبة •

ولقد بلغ الازدهار والسلام درجتهمما التصوى فى الجنوب فيما بين
عام ١٤٧٠ وعام ١٣٧٠ قبل الميلاد ، فى عهد الملوك التجار ، الذين كان
آخرهم « منحتب الثالث » وقد أقام معبدين فخمين احدهما فى « سلب »
والآخر فى « الأقصر » ، وعلى بوابة معبده فى الأقصر نقوش من عهد ابنه
التاثر « منحتب الرابع » الذى غير اسمه الى « اختاتون » وأعلن عقيدة
التوحيد • وتزوج « نفرتيتى » اجمل امرأة فى التاريخ • واتخذ
« اختاتون » عاصمته فى أختاتون ، تل العمارنة « ولكن هذه المدينة دمرت
حين وفاته على أيدي كهنة آمون •

واذا كان كهنة آمون قد دمروا مدينة الشمس ، التى أنشأها
« اختاتون » فان معبد « سلب » لا يزال قائما ، وهو بدوره يستحق
الرعاية ، وفى « سيسى » ثلاثة أعمدة هى بقايا معبد لاختاتون •

ويقول « برستد » : ان هذا المعبد تحول الى محجر فى العهد المسيحى
ولم يبق منه الا الاعمدة الثلاثة •

وفى الحفائر التى قام بها « فيرمان » عام ١٩٣٧ ثبتت صحة ما كتبه
« برستد » عام ١٩٠٧ ، فمدينة « سلب » وقد أنشأها « اختاتون » ولكن
« سبتى الاول » اغتصبها لنفسه •

ونختتم هذا الفصل بأن عبادة « آتون » التى نادى بها « اخناتون »
لم تثبت جذورها فى النوبة ، وظل آمون هو الاله الأعظم لآلف سنة تلت •

« ٧ »

فى الوقت الذى كان الفراغة فيه يقيمون معابدهم ويفرغون عليها
أروع ما أبدع الفن كانت الحضارة البدائية فى كريت قد ازدهرت ثم
اضمحلت بعد أن قضى عليها الغزاة وكانت الحضارة الصينية فى صراع
قاتل مع الهمج من قبائل الهون ، أما فى الهند فكانت حضارة الموهنجو
- دارو • قد بلغت ذروتها وتبلورت فى نظام الطبقات الذى ما زال يسيطر
على المجتمع الهندوسى حتى اليوم • وكان العيلاميون قد اجتاحتوا بابل ، أما
انجلترا فكانت مجتمعاً من الرعاة •

كانت النوبة فى ذلك الوقت تعيش فى سلام تحت حكم الفراغة ،
ومن آخر آثار الاسرة الثامنة عشرة صخرة عليها معبد صغير ينسب الى
« حرم حب » فى مواجهة أبو سمبل ، ولقد محا المسيحيون بعض النقوش
الفرعونية واحلوا محلها رسوماً مسيحية تمثل القديس جورج على ظهر
التنين • وقد زار هذا المكان الرحالة الفرنسى « لابورت » وشاهد ما أجرى
فى العهد المسيحى من محو الآثار الفرعونية واحلال رسوم مسيحية محلها
فعلق على ذلك قائلاً :

ان من يحاول فرض عقيدة جديدة بتدمير القديمة لا يمكنه ان يجيىء
بمثيل لما دمره • الواقع أن النقوش الوثنية التى خلفها « حرم حب » أبدع
واتقن فنا من الرسوم المسيحية •

وعلى مقربة من معبد « حرم حب » أقيم محراب ينسب الى « يسر »
نائب الملك الذى كان فى خدمة « حرم حب » ، وكان لقب يسر « حاكم
بلاد الذهب التابعة لآمون » ومعنى هذا أن « حرم حب » قد أعاد لآمون
كل النفاس التى سلبها اياه اخناتون وقدمها لمعبوده الواحد آتون • وفى
عهد الاسرة التاسعة عشرة سيطر رمسيس الثانى على النوبة سيطرة كاملة ،

وتمثاله فى معبد ابو سمبل يمثل ذروة ما وصل اليه الفن المصرى فى بناء
المعابد الضخمة فى المنطقة التى تمتد من اسوان الى كوش .

لقد بنيت معابد كثيرة فى الالف وخمسمائة العام التالية ، ولكن مافى
للمعابد القديمة ، من سحر وفنة قد زال .

لقد تساءل البعض : ما السبب فى أننا رأينا أنه من الضرورى اعادة
تسجيل « بيت الوالى » تمهيدا للنشر ، مع أنه كان قد تم تسجيله قبل ذلك
تسجيلا كاملا على يد البروفيسور « جوتتر رويدر » ونشر عام ١٩٣٨ ؟ .

وردنا على هذا التساؤل ما يلى :

هناك درجات مختلفة للنشر عن الآثار المصرية ، ومن أعظم الخدمات
التي تقدم للعلماء والدارسين انتاج صور جديدة لهذه الآثار تمتاز بالدقة
وابراز التفاصيل . وقد يختلف تفسير العلماء للحقائق التاريخية باختلاف
أسلوب النقوش الهيروغليفية وشكلها ، وقد يؤدى بعض الآثار الضئيلة
الأثر ، الذى اصابه العطب ، الى حل رموزه . ومن ثم يستطيع الأثرى
فى مكتبته أن يعكف على دراسة هذه التفاصيل والآثار الدقيقة ويستنتج
منها الحقائق التاريخية .

لقد كان ما نشره « رويدر » يعتمد اعتمادا اساسيا على التصوير
الفوتوغرافى للمناظر العامة ونقل النصوص . حقيقة ان الصورة التى
التقطت منذ خمسة وخمسين عاما لاتزال واضحة ولكن مقاييسها صغيرة
مما يثير الضيق حين دراستها دراسة تفصيلية . أما النقوش الهيروغليفية
التي نشرها « رويدر » فانها ليست منقولة عن اصولها الهيروغليفية ،
وكذلك لم يتم تصويرها منفصلة . ولا ننسى أن المال عنصر أساسى فى
تسجيل الآثار ، فما دام المال متوافرا امكن اعداد فرقة كاملة من مهرة
المصورين والفنيين ونقلها الى المنطقة الأثرية التى يراد تسجيلها ، وهذا
ما فعله معهد الآثار الشرقية الذى تعمل معه فى تسجيل آثار النوبة .

ولقد سرنا حين عودتنا الى مقر البعثة فى الاقصر ، ان تلقينا برفقه
تفيد أن البروفيسور « جوتتر رويدر » سوف يحضر شخصيا لمشاهدة ما

نقلناه عن « معبد » فى بيت الوالى ، ولما حضر وجدناه رجلا فى الثمانين
ولكنه ممثلى « بالحوية » ولقد وجهنا اليه عدة أسئلة ولكنه هز رأسه فى
أسف قائلا : لقد نشرت كتابى عن « بيت الوالى » منذ ربع قرن ، أما الصور
فقد التقطتها قبل ذلك بثلاثين عاما ، ولقد تغير كل شئ ولا أستطيع أن
أجارى الموقف .

وحين بدأنا تسجيل « بيت الوالى » وجدنا أن المعبد كان قد حول
الى كنيسة فى صدر العصر المسيحى ، ولكن الحجرات المحورة فى الصخر
لم تستخدم للعبادة ، وقد عثرنا على صليبين قبطيين محفورين حفرا عميقا
فى أعمدة البوابة الوسطى . ولقد ظل معبد بيت الوالى يستعمل كنيسة
نحو سبعمائة عام ، ولذلك فقد كان عرضة لكثير من التغير والاضافة فى
المباني .

وفى هذه المنطقة لاحظت أن أيدى اللصوص قد عبثت بالمقابر الأثرية
الى درجة تدعو للفرع مما يبعث اليأس فى نفوس بعثتنا التى تعمل تحت
رياسة الدكتور « ريك » أما النتائج التى توصلنا اليها فلم تكن مشجعة ، اذ
لم نثر على شئ أثرى هام فى المنطقة ، ومع ذلك فقد حققنا هدفا ، ذلك
بأننا أثبتنا ان المنطقة قد استنفدت أغراضها « الاركيولوجية » وليس هناك
ما يخشى عليه اذا غمرتها مياه السد العالى الى الابد ، وفى مقابل ما بذلناه من
جهد رأيت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن تعوضنا بأن تهدى لنا بعض
الآثار القيمة المحفوظة فى مخازن مصلحة الآثار .

وحين كنت عند باب كلاشة شاهدت الطيور المهاجرة وهى فى
طريقها عائدة الى أوروبا . ذلك الطريق الذى سلكته الطيور التى سبقتها
منذ آلاف السنين ، وسألت نفسى : ترى هل تصل هذه الطيور طريقها فى
قدومها السنوى الى المهجر يوم تجد بحيرة فى هذه البقعة من افريقية لأول
مرة فى التاريخ ؟

وعلى مسافة تبلغ نحو عشرين ميلا من بيت الوالى نجد فى المكان
الذى يسمونه الآن « جرف حسين » بقايا أثرية ممتدة من عصر ما قبل

التاريخ حتى الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية ، وقد عثر أحد اعضاء بعثة الانار الايطالية على معبر فى هذه المنطقة لافراد من « المجموعه ج » التى تحدثنا عنها من قبل ، وفى هذا المذ ان « سيتو » الذى دن نائبا للملك فى عهد « رمسيس الثانى » مبعدا لليله • ويبدو انه كان لهذا المبعد أهمية كبيرة فى عهد رمسيس ، فبوابته قرية من ماء النهر ، وهناك طريق وضعت على جانبيه تماثيل « ابو الهول » وهو يؤدى الى سفح الجبل ، ومن هناك عدة درجات تؤدى الى بوابة تؤدى الى بهو ذى اعمدة ، واخيرا توجد القاعة الكبرى التى تبلغ مساحتها ٤٥ قدما مربعة وهى منحوتة فى الصخر •

ولرمسيس الثانى جهود أخرى فى هذه المنطقة ، فعلى مسافة ٩٤ ميلا من أسوان « وادى السبوع » لقد كان الطريق الى وادى السبوع بعيدا عن النيل حينما زاره « سانت جون » منذ ١٢٥ عاما •

أما اليوم فان تماثيل أبى الهول التى بها رهوس كرهوس الأسود وتحف بالوادى من الجانبين ، فانها غارقة الى اعناقها فى الماء فى اكثر الأوقات ، والرسوم التى تشاهد فى وادى السبوع تكرر لما خلفه رمسيس الثانى فى معابد النوبة ، يضاف اليها قائمة بأبنائه وهى تضم ١٧٠ ، منهم ١١١ أميرا •

وقد عثر فى هذه المنطقة على لوحة لرجل اسمه « بعلى اله العدل » مما يدل على أن الرجل سامى ، وأنه أراد أن يثبت تقديسه للآلهة المصرية والسامية ، ومن ثم نستنتج أن الاجانب أوغلو فى تنقلاتهم فى مصر الفرعونية جنوبا حتى اسوان •

فاذا انتقلنا الى الدر فاننا نجد ان « رمسيس الثانى » بنى فى الصخر مبعدا صغيرا آخر ، ولقد تضاربت الآراء فى الدر فقد مر بها « سانت جون » عام ١٨٣٨ فقال : انها اجمل ما رأى فى مصر • ومر بها « جاذزبى » فقال : انها قرية مصرية عادية وليس بها ما يستحق الذكر بعد أن جرد الأثراك سكان البلاد من كل ما يملكون ، ومرت بها « اميليا ادواردز » عام

١٨٧٤ فأحاط بها بأئمة العاديات من كل جانب وألحوا عليها إلحاحاً جعلها تذكر ان النوبيين لا يزالون متوحشين •

وقبل ان تنتهى من الكلام عن الدر نود أن نسجل أن المعابد التى عثر عليها فى الدر ، « وجرف حسين » ليست من النوع المتقن الصنع الذى نشاهده فى (أبو سمبل) ، ويدو أن خيرة المثالين فى ذلك العصر كانوا يعملون فى (أبو سمبل) فى حين ترك المعابد « الدر » وجرف حسين ، قاطمو الاحجار فقط •

« ٨ »

فى حديث بينى وبين « آلان مورهود » فى الاقصر سألتى : هل معبد أبو سمبل يستحق أن ينفق على انقاذه ستون مليون دولار ؟

وردنا على سؤاله أستشهد بما يلى :

لقد كتب شامبلون يقول : لو لم يكن فى زيارة النوبة غير مشاهدة معبد ابو سمبل لكفى •

وفى عام ١٨٢٩ كتب « بير كهارت » الذى اكتشف (ابو سمبل) عام ١٩١٣ يقول : ان وجه تمثال رمسيس يترك فى النفس أثراً عميقاً وهو أقرب الى الجمال الاغريقى منه الى النموذج المصرى للجمال •

وكتب « اميليا ادواردز » تقول : انه أكمل وجه نقله اليينا الفن الفرعونى ، بل هو من أجمل الوجوه فى التاريخ •

اما « أوزبرت لانكستر » فقد كتب عام ١٩٦٠ يقول : ان رمسيس فى (أبو سمبل) ليس الا فرعوناً مجنوناً بحب العظمة ، ينظر فى غرور أحرق الى الصحراء •

والواقع أنه ما من عالم بالآثار المصرية جدد فكرة انقاذ معبد (أبو سمبل) وحثهم فى ذلك أن فى النوبة من الآثار ما هو أهم بكثير من هذا المعبد •

ولكن لندع آراء علماء الآثار المصرية جانبا ولنقبل عن العلامة « برستد » قوله ان « ابو سمبل » من اعظم مشاهد العالم اجمع ، لاجماله وحده ، ولكن لأنه مستودع لعدد كبير من سجلات التاريخ .

ومما يسترعى النظر فى المعبد تلك النقوش التى تصور معركة « قادش » وهى اول معركة فى التاريخ تصور لنا التوزيع الاستراتيجى للقوات المحاربة على كلا الجانبين . وكيف يكمن الجند وراء التلال والآكام ثم يباغتون عدوهم ، انها تصور لنا رمسيس وقد أحاطت به قوات العدو وقطعت عليه طريق الاتصال بقواته . وبعد ذلك يجرى دور الجواسيس وكف القى القبض عليهم وضربوا ضربا موجعا ، ثم وصول الامدادات وانقاذ رمسيس واخيرا النصر . انها أول معركة كبيرة بين المصريين وبلاد الشمال ، ترى فيها فرعون فى عجلته الحربية يطارد الاعداء . ان المعسكر ملىء بالمناظر التى تقدم لك صورة حية عن حياة الجندية فى مصر القديمة .

وبعد : فان (ابو سمبل) بما أثاره من تقدير واعجاب ، ونقد واستنكار ، وخليط من مشاعر الحب والكراهية ، يستحق الثمانية عشر مليون جنيه المصرية التى تتطلبها المحافظة عليه ، وليس هذا المبلغ بالشئ الكثير اذا قسم على مختلف الدول المساهمة فى مشروع انقاذه .

ويعتقد البروفيسور « بيتر وجزولا » مدير متحف الفنون فى « فيرونا » أن المعابد يمكن انقاذها من الفيضان برفع كتلة الصخر التى أقيم فيها المعبد ، ثم تثبيتها على أساس يبنى لهذا الغرض على حافة البحيرة الجديدة التى يكونها ماء أنسد العالى . كما يعتقد هو وزميله البروفيسور « جوست فوكولونيتى » أنهما يستطيعان رفع ٢٥٠ ألف الطن من الصخر ، التى يتكون منها المعبد الكبير ، الى ارتفاع مائتى قدم فوق مستوى أساسه الحالى من غير أن يحدث أى اضطراب فى توازنه ، ويتم الرفع بواسطة ٢٥٠ رافعة تستخدم أجهزة الكرونية لكشف أى خلل فى عملية الرفع . وإذا ما تم رفع الصخر بنجاح الى ارتفاع ٢٠٤ أقدام ، يخلص من القصف الذى يحتويه ، ثم يعد المنظر من حوله بحيث يعود الى مثل حالته السابقة .

ان اقامة رمسيس الثانى لمعبد (ابو سمبل) منذ ٣٢٠٠ سنة كان
جهدا بشريا يستحق التقدير ، والان فان رفع هذا المعبد ، من غير اصابته
بمعلب ، عمل سوف يحظى بأعظم تقدير ، انه عمل لامثيل له من قبل .

٩ .

فى عام ١٨٧٤ زارت « أميليا ادواردز » معبد (أبو سمبل) ولاحظت
وجود بقع على وجه تمثال رمسيس ، لقد كانت مفتونة بالفرعون الشاب
ولذلك كلفت طاهيها أن يعد بضع جالونات من القهوة ويصبها فوق وجه
التمثال ، وبذلك اختفت البقع البيضاء التى شوهته من قبل . وفى اثناء هذه
الرحلة اكتشفت « اميليا » وجماعتها معبد توت الصغير بجانب المعبد الكبير
وعليه كتابة ميراطيقية .

وفى عام ١٩٣٣ قدمت المسز « ارشبولد » الامريكية مبلغا من المال
لعمل حفائر أخرى بجانب المعبد الكبير فى (ابو سمبل) ونتيجة لذلك تم
اكتشاف لوحين للحاكم « بيزات » نائب الملك فى عهد « رمسيس الثانى »
وهو يصلى للاله آمون . وقد أخبرنى ليب حبشى أن هذه البقعة مملوءة
بالآثار منذ الاسرة السادسة حتى الاسرة الحادية والعشرين ، وهو يرى
أن هذا كان يعتبر مكانا مقدسا منذ أقدم العصور ، ولهذا السبب اختاره
رمسيس الثانى لاقامة معبده الكبير . ولن نضيع وقتنا سدى اذا استطعت
جمع البيانات اللازمة عن آثار هذه المنطقة قبل ان تغطيها المياه ، وهناك بقعة
من ستراسبورج تعمل بالمنطقة تحت رياسة البروفيسور « جاك ليكلان »
كما ان هناك عند قرية « الشيخ داود » بقعة اسبانية تفحص بقايا حصن
بيزنطى .

ومنذ وفاة رمسيس الثانى لم يشيد بالنوبة بناء هام لفترة تبلغ ألف
عام ، ولكن هناك مقابر متفرقة منها مقبرة « بينو » حاكم « واوات » قرب
عنية ، وهى على مسافة من « معام » التى كانت مقرا لنواب الملك حكام
النوبة .

واذا انتقلنا الى « توشكى » فاننا نجد مقابر من جميع عصور التاريخ ، وقد قام البروفيسور « بونكر » بالتنقيب عن غالبيتها ونشرها منذ عام ١٩١٢ ومن بين المقابر التى لم تفتح مقبرة « ولد النجومى » الذى مات عام ١٨٨٩ حين كان يقود جيشا لغزو مصر . وهذا يذكرنا بما كتبه « استرابون » من ان الملكة « فندشى » قامت على رأس حملة لمهاجمة « الفائق الرومانية » فى هذا المكان نفسه منذ الفى سنة .

ان المصريين مشهورون منذ القدم بحبهم لبلدهم ونفورهم من الهجرة الى بلاد أخرى . وقد عثر على رسائل كتبها الموظفون المصريون الذين كان الفراغة يرسلونهم للعمل فى النوبة ، وهى رسائل يعبرون فيها عن حنينهم للوطن . وأود أن أنقل الى القارئ صورة من هذه الرسائل وقد سطرها « دوتموس » وكان يشغل منصب كاتب المقبرة حينما أرسلته الحكومة فى طية الى بلاد النوبة ليكون فى معية الجنرال « بسانكى » نائب الملك فى « كوش » كتب « دوتموس » الى ابنه « بوتيهامون » الذى كان هو الآخر كاتباً :

من كاتب القبر دوتموس الى الكاتب بوتيهامون ، ومرتلة آمون شدمدوا :

اتمنى لكم الحياة الطيبة والرخاء فى ظل آمون رع ، ملك الآلهة ، انى أتضرع الى الآلهة فى كل صباح ليمنحوكم السعادة والحياة والرخاء وأن أعود الى الوطن وأضمكم الى . لقد أرسل رئيسى مركباً لينقلنى فوجدتنى قرب ادفو . والتقت برئيسى فى الفاتين فأعطانى خبزاً وخمراً ودعا لى بخير .

لعلكم تضرعون الى آمون ، الذى يسيطر على عرش الأرضين أن يعيدنى الى بلدى سالما ، معافى ، وعليكم أن تعتوا بالاطفال ولا تهملوهم . لانقلقوا بسببى فانا فى حال طيبة ، ولكن وجهوا عنايتكم الى الجند ، ولا تدعوهم يفرون ولا يجوعون .

ابلغوا امنحبت أن يتوصل الى آمون والى آلهة مدينة حابو ، كى يعيدونى الى الوطن سالما .

وهكذا تمضى الرسائل بين الوالد فى النوبة وولده فى مصر ، وكلها تدل على تعلق المصرى الشديد بوطنه وحنينه اليه وهو فى غربته .

« ١٠ »

قبل تبادل رسائل الحنين الى الوطن بأحد عشر عاما ، عثر على رسالة أخرى تتصل « بذوتموس » ومصر . وهذه الرسالة محفوظة الآن فى متحف « تورين » وهى من الملك « رمسيس الحادى عشر » الى « بانحس » كاتب الملك فى النوبة يطلب منه فيها احضار احجار . وزهور زرق للصباغة من بلاد النوبة ، وربما كانت هذه الرسالة ايدانا بانتهاء ملك الفراعنة فى مصر ، فبعد عامين نشبت حرب أهلية فى طيبة ، وبدلا من قدوم « بانحس » حاملا الزهور والاحجار جاء بجيش من ابناء النوبة لقمع الثورة فى مصر ، وبعد قليل اصبح « حرحور » نائبا للملك بدلا من « بانحس » ثم تدرج فى السلطة حتى أصبح حاكما فعليا على مصر العليا .

ويقول البعض : ان « حرحور » اصبح ملكا ، ولكن عثر على رسالة كتبها « بانحس » بعد عشر سنوات يقول فيها : ان رمسيس الحادى عشر لا يزال ملكا على مصر ، وان كان ملكا صوريا ، أما الملك الفعلى فهو كاهنه الأكبر « بيانكى » ابن « حرحور » ونذكر ان « بيانكى » هذا هو الجنرال « بيانكى » الذى ذهب « ذوتيموس » الى النوبة للعمل تحت رياسته .

وقد ظل هؤلاء الملوك الكهنة يحكمون مصر ١٢٠ عاما كانوا خلالها فى صراع دائم مع الاسرة الحاكمة الليبية التى سيطرت على مصر السفلى ، وقد كانت البلاد حين ذاك فى اضطراب وفوضى . والذى يهنا هنا ان النوبة استقلت بالفعل ، وفر كثير من كهنة مصر الى النوبة وأخذوا يعملون على تمصيرها .

وما لبثت صفحات التاريخ أن تغيرت فقد حكم الكوشيون مصر . ان اقليم « نباتا » فى أعالى دنقلة كان مقر ملوك « كوش » وليست لدينا معلومات كافية عن نشأة الملكية فى « كوش » وكل ما هنا لك مجموعة من

المقابر عثر عليها فى إقليم « نباتا » وكان من بين الأسماء اسم « بيانكى »
ومن هنا يحتدل أن ملوك « كوش » هم من سلالة القائد المصرى « بيانكى »
الذى كان نائباً للملك فى عهد رمسيس ، وإذا ثبت ذلك فكأن ملوك
« كوش » من سلالة طيبة .

والمهم لدينا الآن ان « كاشطا » والد « بيانكى » كان قد بدأ غزو
مصر ، وأن « بيانكى » أصبح أول ملك فى الأسرة الخامسة والعشرين
التي يطلق عليها اسم الأسرة الاثيوبية . وقد سطر « بيانكى » أعماله على
لوحة عثر عليها فى معبد « آمون » فى جبل « برقل » بإقليم « نباتا » عام
٧٣٩ قبل الميلاد وتقول اللوحة : ان بيانكى قدم بجيشه الى مصر حيث قاده
بنفسه الى « هرموبوليس » فى مصر الوسطى ، واستولى عليها فى ثلاثة
أيام بعد أن هزم أميرها « النمرود » ، وسار « بيانكى » بعد ذلك شمالا
واستولى على منف ومنذ ذلك الحين امتدت مملكة كوش ومصر من
« نباتا » الى البحر الابيض ، وكانت عاصمتها فى « نباتا » .

وجاء بعد « بيانكى » « شاب كو » فنقل العاصمة الى طيبة ، ومما
يؤخذ على هذا الملك أنه ساعد « حوشيا » ملك اسرائيل ضد ملك آشور ،
ومن هنا بدأ النزاع الذى أطاح بملك الكوشيين فى مصر .

وفى ذلك العهد كن الاشوريون يستعملون الاسلحة المصنوعة من
الحديد ويضغطون على غربى آسيا ، وكانت قرطاجة زاهرة ، وروما فى
دور التأسيس ، والاغريق ينشئون دول المدن فى أماكن متفرقة من
بلادهم .

ونعود الى ملوك « كوش » فى مصر فنقول : ان ثانى ملك ذا أهمية
من الكوشيين تولى عرش مصر هو « طهرافة » وقد توج فى طيبة وتانىس
(صان) عام ٦٨٩ قبل الميلاد ، وقد أقام طهرافة لنفسه أربعة تماثيل ضخمة
على جبل « برقل » الذى كان مقدسا « لآمون رع » اله الرياح ، وربما
كان يريد بذلك أن يبرز تماثلى رمسيس الثانى فى (أبو سمبل) .

وفى عهد « طهرافة » زحف « آسار حادون » ملك آشور على مصر

واستولى على منف بعد أن أوقع الهزيمة « بطهراق » وبعد موت « آسار حادون » عاد طهراق الى مصر ، ولكن « آشور بانتيال » بن « آسار حادون » وخليفته فى الملك غزا طية ، وفر « طهراق » الى كوش ووضع نقوشا زعم فيها أنه هزم الأشوريين والحشيين زقبائل الصحراء الشرقية ، وأخيرا مات « طهراق » عام ٦٦٣ قبل الميلاد ودفن فى هرم فى « نباتا » .

وقد رأى خلفه « تانوت آمون » رؤيا فسر لها المفسرون بأنه سيعود الى ملك مصر ، فعلاجهز حملة وسار الى مصر واستولى على طية ، ولكن قوات « آشور بانتيال » هزمته شر هزيمة ففر الى نباتا وأقام « آشور بانتيال » « أبسماتيك الاول » ملكا على مصر العليا والسفلى ، ومنذ ذلك التاريخ انتهى حكم الكوشيين لمصر .

وبعد ١٢٠ سنة من انسحاب الكوشيين من مصر نقلوا عاصمتهم الى « مروى » واستعملوا أسلوب الفن المصرى وأبجدية كتبوا بها اللغة المروية .

ويقول « هيرودوت » : ان أمراء مصر تمردوا على « إسماتيك » ، وطردوه الى مستنقعات الدلتا ، وهناك قابلته جماعة من الايونيين الاغريق . وساعدوه على استرداد ملكه فى مصر واستقر هؤلاء الاغريق عند المصب النيلوى للنيل ، ثم نقلهم الملك « امازيس » الى منف وجعلهم حرسه الخاص ..

هذه رواية « هيرودوت » ، ولكن « تيودور الصقلى » يقول : ان « إسماتيك » استرجع ملكه بالمرتزقة من الصرب والاعريق وفى حملته على سورية قدمهم على الجنود المصريين ، فغضب هؤلاء وهاجر ماتا ألف منهم الى « اثيوبيا » وتفسر اثيوبيا هذه بأنها المنطقة التى بين جزيرة الفاتين ومروى .

وقد وجد مكتوبا على الساق اليسرى لتمثال رمسيس فى (أبو سمبل) بالاغريقية ما فهم منه لفترة طويلة ان ذلك وصف للطريق الذى اتخذته المهاجرون نحو الجنوب ، ولكن تبين فيما بعد أن هذا يشير الى الحملة

التي أرسلها « إسماتيك الثاني » فوصلت إلى ما بعد « نباتا » عند الشلال الخامس ، وكان ذلك عام ٥٩٠ قبل الميلاد •

وفي حين كانت هذه الحوادث تجري في مصر ، كان « صولون » المشرع الاغريقي ، يجري اصلاحاته الديمقراطية في أثينا ، أما امبراطورية آشور فكانت في طريقها الى التفكك ، على الرغم من أن « نبوخذ نصر » كان مسيطرا في ذلك الوقت على اورشليم (بيت المقدس) وقد أخذ اليهود أسرى الى بابل وهذا هو المعروف في التاريخ « بالأسر البابلي » •

وبينما كان أبناء هؤلاء المهاجرين الى الجنوب يتعلمون فلاحه أرضهم الجديدة ، اذ ظهر زعيم آسيوى جديد ، فاستولى على بابل وخلص اليهود من الاسر ، واسم هذا الزعيم « قورش » ، أما في الهند فان الامير « جوتاما » أصبح يطلق عليه لقب « بوذا » وظل غارقا في تأملاته بعيدا عما يجري حوله ، وفي الصين ظهر المعلم الاكبر « كنفوشيوس » وأخذ يحجوب البلاد هو وتلاميذه •

ويقول « هيرودوت » : ان « قمبيز » ابن « قورش » غزا مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد وقبض على « إسماتيك الثالث » ملك مصر وأعدمه ، وقد حاول قمبيز غزو بلاد « كوش » ولكن جيشه لم يتقدم خطوة واحدة بعد « ابريم » ، وقد عثر في الصحراء على كثير من الحراب والسهام والخوذات التي خلفها جيش « قمبيز » التائه •

ويقول « جان دى فيكيو » في يومياته : ان جنود الفرس ، الذين غزا بهم « قمبيز » مصر دمروا مدينة أسوان ، وعبروا النهر وقاموا بالسلب والنهب في « فيلة » ، ومهما يكن من أمر فان السنوات المائة والخمسين والتسعين ، التي مرت منذ احتلال الفرس لمصر حتى قدوم الاسكندر ، لم تترك أى أثر في بلاد النوبة ، أما خراج النوبة فقد توالى الاحداث ، فكانت هناك معركة « مارتون » ، التي انتصر فيها الاغريق على الفرس ، وحياسة « سقراط » وموته وعصر « بركليس » الزاهر ، وقدم « هيرودوت » الى

مصر •

ويبدو أن البطلة الذين حكموا مصر بعد الاسكندر قد لقوا ترحيا من المصريين ، اذ أنهم خلصوهم من حكم الفرس ، وقد اندمج البطالة في الحياة المصرية ، واحترموا الآلهة المصرية ، وبنوا المعابد ومن بينها معبد «فيلة» وكانت حدود مصر الجنوبية عند النوبة السفلى ، ولكن البطالة دفعوا بها جنوبا حتى الشمال الثانى ، غير أن امتداد الحدود المصرية الى الجنوب تم بطريق سلمى ، وفى عهد « بطليموس الرابع » استطاع « أرك آمون » ملك « مروى » أن يمد حدوده شمالا وبنى معبد « دبور » قرب أسوان وذلك فى نحو عام ٢١٠ قبل الميلاد .

وكذلك بنى « أرك آمون » ملك مروى معبد « دكة » قرب «ايكور» وهى من مدن الاسرة الثانية عشرة ، ويقول « تيودور الصقلى » : ان « أرك آمون » تلقى تعليما اغريقيا فى بلاط « بطليموس » فى الاسكندرية .

وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لانقاذ جميع آثار البطالة فى النوبة ، وعلى الرغم من أن هذه الآثار لا تجارى ما خلفته الاسرة الثامنة عشرة ، فان لها قيمة تاريخية كبيرة ، لانها تمشى مع تطور الحوادث فى ذلك الزمن ، وتقدم لنا صورة واضحة عما يجرى حين ذاك ، ففى هذه الفترة ظهر « ارشميدس » صاحب قانون الاجسام الطافية ، و « هانيبال » وتدمير قرطاجنة ، واحراق مكتبة الاسكندرية ، وانطونيو وكليوباترا .

ومما يبدو بعيدا عن التصديق أن كليوباترا قامت برحلة نيلىسة الى الجنوب وزارت « بيت الوالى » فى اقليم النوبة ، والراجع أن كليوباترا ، لم تجل فى أنحاء مصر ، بل نستطيع القول بأنها لم تر (أبو الهول) .

ان قصة الحب الخالدة بين « انطونيو » و « كليوباترا » لم يكن لها أى صدى فى النوبة ، وبعد موقعة « اكيوم » وانتحار الحسين أصبحت مصر ، ومعها النوبة ، ولاية رومانية .

وحين استولى الرومان على النوبة وجدوا أمامهم مملكة قوية فى الجنوب هى مملكة « كوش » وعاصمتها « مروى » وكان ذلك سنة ٢٩ قبل الميلاد ، وقد أثبت « كورنيليوس جالوس » حاكم مصر الرومانى أنه

عقد اتفاقية مع الكوشيين على أن يكون الشلال الثانى هو حد مصر الجنوبى ، وفى هذه الفترة قام الجغرافى الاغريقى « سترابون » بزيارة الجنوب وقضى وقتا سعيدا مع ايلبوس جالوس الحاكم الجديد ، وبعد عامين من زيارة سترابون للجنوب نقض الكوشيون شروط المعاهدة .

ويروى لنا « سترابون » قصة الانوبيين (الكوشيين) مع الرومان فيقول : انهم هاجموا مصر حينما كان حاكمها « ايلياس جالوس » يحارب العرب ، وبسط هؤلاء الكوشيون نفوذهم حتى سبنى (أسوان) ثم استولوا على « الفانتين » و « فيلة » وهدموا تمثال قيصر ، ولكن القائد « بترونيوس » هاجمهم وردهم حتى « دكة » ، وكان بين الكوشيين الملكة « قندش » وقد ظل « بترونيوس » يطارد الكوشيين الفارين حتى هزمهم فى « ايريم » وبلغ « نباتا » ، ولما عادت الملكة « قندش » لمهاجمة القوات الرومانية هزم « بترونيوس » جيوش الكوشيين شر هزيمة ، ثم جاءه السفراء يطلبون الصلح ، ولكنه أحالهم الى « أوغسطوس » قيصر ، وذهب رسل الكوشيين الى جزيرة « ساموس » حيث كان قيصر مرابطا فيها ، وهناك التقوا به فوعدهم برد كل ممتلكاتهم اليهم .

وعلى ذكر الملكة « قندش » نقول : انها فى الحقيقة شخصية تاريخية تستحق الوقوف عندها ، ولنذكر أولا أن « قندش » ليس اسم الملكة ، ولكنه لقبها مثل كلمة « فرعون » لقب ملوك مصر ، وهذه الملكة كانت تقيم فى « نباتا » وهى مستقلة عن مملكة « مروى » ويظن أنها آخر ملوك « نباتا » وأن الهرم الذى وضع عليه « ريزنر » علامة (x) هو مقبرتها ، ويبدو أنه لم تقم لها ولا « لنباتا » قائمة بعد حملة « بترونيوس » .

وقد ظل السلام يسود النوبة طوال مائتى عام ، ثم أغار عليها بدو من الصحراء الشرقية يطلق عليهم اسم « البلعى » واحتلوها ، وكان هؤلاء القوم على شىء من الحضارة التى نقلوها عن ملوك « مروى » وسلالتهم اليوم هم قبائل « البشارية » و « العبادية » وقد أقام الرومان عدة معابد فى النوبة منها معبد كلاشة ، الذى شيد فى عهد « أوغسطوس » قيصر ، وقد اعتبره « ما سيرو » أجمل معابد النوبة .

وبعد الكارثة التي أصيبت بها الملكة « قندش » بأربعة وعشرين عاما ولد المسيح ، وبعد ميلاد المسيح بأربعة وخمسين عاما أرسل الامبراطور الروماني « نيرون » حملة على مملكة « مروى » وسارت هذه الحملة في النيل حتى بلغت اقليم السد ، ولم يحاول الرومان السير عن طريق النيل في منطقة الشلالات ، وفضلوا عليه الطريق البرى الى « دارفور » مارا بالواحات الداخلة وعلى طول الطريق شيدوا المعابد الجديدة وأصلحوا القديمة .

وفى نحو عام ٣٠٠ ميلادية استطاع « البلعى » وهم سكان الصحراء الشرقية ، أن يحتلوا المنطقة التي عند باب كلاشة .

(١١)

فى ٣ من نوفمبر عام ١٩٣١ ، وفى آخر موسم التنقيب ، الذى أجرى قبل التعلية الثانية لخزان أسوان ، شاهد البروفيسور « ايمرى » ورجاله مساحة واسعة مغطاة بالتلال على مسافة من (أبو سمبل) فى « بلانة » و « قسطل » ، وكان « بيركارت » قد زار المنطقة عام ١٨١٣ وظنها أكواما رملية طبيعية ، وقد أجرى « ايمرى » بعض الحفائر فى المنطقتين وثبت له أن بهما مقابر أثرية لشخصيات هامة ، وبمواصلة الحفر وجدوا عظام ملوك وتيجانهم .

وقد قام البروفيسور « ايمرى » باجراء حفائر أخرى فى « ابريم » واستقر رأيه أخيرا على أن ما اكتشفه من مقابر لعنصر عاش فى المنطقة بين القرنين الثالث والسادس المسيحى ، وانهم سدوا الثغرة بين عهد ملوك « مروى » والعصر المسيحى ، ويرجع « ايمرى » أن هذا العنصر من « البلعى » سكان الصحراء الشرقية ، ويقول « ايمرى » : ان البلعى أنشؤا مملكة مستقلة فى هذه المنطقة وذلك فى نحو سنة ٣٠٠ ميلادية ، وأن الاكوام التي شاهدها ليست الا مقابر ملوكهم ، وهؤلاء القوم كانوا وثنيين يعبدون آلهة « مروى » وآلهة مصر القديمة ، وكانوا يقدمون قربانهم من الحيوانات والأدميين ، ولم تكن لهم لغة مكتوبة .

ولما انتشرت العقيدة المسيحية عارضها العالم القديم ، وكان من أشد المعارضين لها في مصر «ماكسيمينوس» الذي اضطهد المسيحيين ، فهاجروا الى النوبة ، وكانوا موضع توفير واجلال من الاهالى حتى لقد أطلقوا عليهم اسم « آباء الصحراء » .

وفى عام ٣١٣ ميلادية أعلن الامبراطور « قسطنطين » أن المسيحية هى الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية ، وذلك بمرسوم « ميلان » الشهير ، وبعد تسعة وأربعين عاما أصدر الامبراطور ثيودوسيوس مرسوما بأن تصبح مصر والنوبة رسميا مسيحيين ، ولكن الآلهة القديمة لم تخف بسهولة ، ونحن نعلم ان « البلمى » ظلوا متمسكين بعقائدهم القديمة حتى القرن السادس .

وفى ذلك الحين ضعفت مملكة الكوشيين وصارت نهبا « لأكسيوم » امبراطور أثيوبيا ، وقسمت « كوش » الى ثلاث ممالك ، وهى مملكة « ناباتيا » من الشلال الاول الى الشلال الثالث و « ماقوريا » الى جنوب « مروى » وعاصمتها دنقلة العجوز ، والثالثة مملكة « علوه » وعاصمتها « سوبا » قرب موقع الخرطوم الحالية .

ولقد زعم أحد الملوك واسمه «سيلكو» انه ملك النباطين والكوشيين ، وسجل ذلك بالاغريقية على معبد كلاشة ، وفى عهد الملك « سيلكو » وذلك فى نحو سنة ٥٣٠ ميلادية كان كل شمال شرقى افريقية مسيحيامن البحر الابيض الى أثيوبيا ، وفى فترة مائة العام ما بين حكم سيلكو والفتح العربى للنوبة أقيم كثير من الكنائس كما تحول عدد كبير من المعابد الى كنائس .

وفىما بين عامى ٦٥٠ ، ٧١٠ ميلادية اتحدت مملكتا ناباتيا وماقوريا المسيحيتان وكونتا مملكة واحدة عاصمتها دنقلة العجوز وظلت ناباتيا تحتفظ بشخصيتها فى ظل زعيمها « ايباشى » الذى أطلق عليه العرب اسم « شيخ الحبل » ويقول « آركل » : ان النباطين قد يكونون فرعا من المرويين ، وأنهم أوجدوا ممالك عبر الصحراء تمتد غربا حتى شمالى

نيجيريا ، كما أنهم على الرغم من الفتح العربى ظلوا يستعملون اللغة
الاغريقية فى الشؤون الكنسية ، وعلى المقابر حتى عام ١١٨١ ميلادية ، وفى
عام ٥٧٧ ميلادية حول الاسقف « تيودور » جانباً من مصعد « قيلة » الى
كنيسة ، وبينما كان « تيودور » ينشر البخور المقدس اذ ظهر الاسلام ،
وبعد قليل اكتسح البلاد فأوقف « تيودور » نشاطه وأطفاً مباحره : ففى عام
٦٤١ غزا عمرو بن العاص مصر ، وأصبحت النوبة جزءاً من الخلافة
الاسلامية ، وبعد احدى عشرة سنة حدث تمرد فى النوبة فذهبت اليها
حملة سارت جنوباً حتى دثقت العجوز فدمرتها ، وطلب ملكها « قلدس »
الصلح فعقد العرب معه الصلح .

هذا والمعاهدة التى عقدها عمرو مع الملك « قلدس » تثبت عدالة
المسلمين وتسامحهم الدينى مع المسيحية ، وفيما يلى جانب من نص هذه
المعاهدة .

« ياهل النوبة : سوف تعيشون فى امان فى ظل العناية الالهية
ورعاية الرسول محمد ، وللرعايا من كلا الطرفين حق عبور الحدود ، على
الا يكون قصدهم الاقامة ، وعلى الجانب الذى يعبرون لديه واجب حمايتهم ،
وعلى النوبيين أن يحافظوا على المسجد الذى بنى فى مدينتهم وليس عليهم
أن يعتنقوا الاسلام مرغمين .

« واذا انتهكتم شروط المعاهدة فسوف نعود الى العدوان حتى يحكم
الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وقد أقسم المسلمون على المحافظة على شروط المعاهدة باسم الله
ورسوله وطلبوا من النوبيين أن يقسموا بكل ما يعتبرونه لديهم مقدساً
وبالمسيح وبحواياه .

ان الصورة الشائعة عن العرب فى بلاد الغرب صورة مشوهة تحمل
معنى القسوة والظلم والوحشية ، ولكن هؤلاء الغرب كانوا حفظة
الحضارة فى خلال العصور الوسطى ووقت ان كانت المسيحية فى باكورة
عهدا فى النوبة .

ويقول العلامة « فلندرز بترى » : ان العرب أقاموا فى اسبانيا
حضارة من أعظم الحضارات الانسانية ، وان تجاهل هذه الحقيقة يعتبر
تجاهلاً لأصح صفحات العصور الوسطى .

هكذا لم يكن الفاتحون العرب أعداء للمسيحية فى النوبة الأ عند
الضرورة حين يتمرد عليهم الاهالى ، ولما كانت ديانتهم تقوم على أسس
من الصلاح والبر ، فقد كانوا يحيطون المسيحى المخلص لدينه بالمعطف
والتسامح •

ويروى لنا المؤرخ العربى « أبو صالح » القضية التالية : فى عهد
الخليفة المستنصر بالله نزل سليمان ملك النوبة المسيحى عن عرشه ،
وعكف على العبادة فى كنيسة « الوادى » على مسيرة عشرة أيام من
أسوان ، ولما علم وزير مصر بذلك نقله الى القاهرة حيث استقبل بالتحلة
والتكريم ، واختيرت له دار خاصة ، وأخذ الوزير يتردد عليه لزيارته
والاطمئنان على صحته ، وبعد عام مات الملك سليمان ، ودفن فى دير
القديس جورج •

ويروى قصة أخرى عن الملك « زخاريا » ملك النوبة الذى تأخر
فترة طويلة عن دفع الجزية فى عهد الخليفة المأمون، ولما عجز « زخاريا »
عن الدفع أرسل ابنه جورج الى بغداد ، ولما علم الخليفة المأمون بقصته
تأثر تأثرا عميقا ، وأعاد جورج الى مصر ومعه هبات قيمة الى الملك
« زخاريا » وكذلك أمر بان يتخصص للامير جورج قصر من قصور
حاكم مصر •

ويبدو لى أن الحياة فى النوبة فى عهد الملك زخاريا والامير جورج
تشبه الحياة فى انجلترا فى عهد ملوك الساكسون ، فهناك الملك ومن
حواله الرهبان ورجال الاكليروس والحياة كلها تدور حول الكنيسة •

لقد ظلت السكينة والهدوء تسودان بلاد النوبة طوال العهد البطلمى
والعهد المسيحى وصدر العهد الاسلامى ، وذلك باستثناء فترات متقطعة،
ولكن فى عام ١١٧١ ميلادية انتهى حكم الفاطميين فى مصر وتولى
السلطة بدلا منهم صلاح الدين الأيوبى ، وكان النوبيون يجهلون ما جبل
عليه هذا الحاكم الجديد من بأس وقوة ، ولذلك أغاروا على أسوان
وبدءوا فى احتلال مصر العليا ، ولكن « صلاح » أرسل اليهم حملة تحت

قيادة « شمس الدولة » فأدبهم وأسروهم خلقا كثيرين ، وفي عام ١٢٧٢ أغار النوبيون تحت قيادة الملك « داود » على مدينة عربية على البحر الاحمر ، فأرسلت حملة من مصر لتأديبهم ، وقد أسر الجند المصريون الملك « داود » ومات في أسره .

وفي هذه السلسلة من الاضطرابات والغارات ظلت النوبة معطلة من الآثار التاريخية .

وفي عام ١٥١٧ ميلادية استولى الاتراك العثمانيون على مصر في عهد السلطان سليم الاول ، ومنذ ذلك الوقت ظل النوبيون ، كاخوتهم المصريين ، يستغلون بلا رحمة على أيدي حكامهم الاتراك ، ولقد نصب سليم حكاما على النوبة فبنوا الحصون في أسوان وابريم وغيرها من الاماكن وأقاموا فيها حاميات من « البشناق » . ويقال : ان حامية « ابريم » ذهبت في زوايا النسيان ، فاندمجت في البيئة المحيطة بها ، وقد علق على ذلك « سانت جون » حين زار المنطقة عام ١٨٣٨ فقال : انه لاحظ أن بعض أهالي الدر ، شقر ، ولعل هؤلاء من سلالة البشناق ، وكذلك شاهدت « اميليا ادواردز » عام ١٨٧٧ نساء في « ابريم » ذوات شعر أحمر موج وعيون زرق .

وفي عام ١٧٩٨ غزا نابليون مصر ، ثم جاء عهد محمد علي وأسرته ، ولكن هذا لم يغير شيئا من حياة النوبيين الفقراء .

وفي عام ١٨١٢ أرسل محمد علي حملة الى السودان فمرت بالنوبة وتركها كالهشيم ، كذلك كانت هناك معركة بين محمد علي والمماليك في « ابريم » ولعل المتقين يكشفون لنا عن أسرارها .

وفي أواخر القرن الماضي كانت بلاد النوبة ميدانا للمعارك بين الدراويش وبين القوات المصرية والبريطانية ، أما الآن - ونحن نختم حديثنا عن النوبة وأهلها - فانتى أود أن أصحح تلك الصورة التي انطبعت في بعض الاذهان عن النوبة بأنها « بلاد العبيد السود » وهذا خطأ تاريخي

فاحش ، فأهل النوبة ليسوا سودا ، بل هم من الجنس الأسمر ، وهم كذلك لم يكونوا عبيدا فى يوم من الايام .

وإذا كانت النوبة قد أقيمت فى زوايا التسيان ردحا من الزمن ، فإن السد العالى ومياهه قد أيقظت الاثريين من سباتهم العميق ، وهب العالم المتمدين بأسره يوجه أكبر اهتمام للنوبة ويطالب بانقاذ آثارها ، أو تسجيلها ان لم يكن هناك سبيل الى الانقاذ .

لقد كانت النوبة هى الطريق الملكى الى افريقية حينما كان انسان العصر الحجري يأوى الى الغابات فى أوربا ، وكان فى النوبة سلسلة من الحصون والمراكز التجارية حين ظهرت الجماعات البدائية فى جنوب غربى اوربا ، وحين كان سليمان يبنى المعبد للرب فى اورشليم ، كان النوبيون قد بلغوا مستوى حضاريا رفيعا ، وفى حين كانت روما فى طريق التأسيس كان النوبيون يغزون مصر ويفرضون سيطرتهم عليها ، ولقد ظلت أسرات مالكة نوبية تحكم فى « نباتا » و « مروى » طوال ألف عام ظهر فيها « بركليس » و « سقراط » و « بوذا » و « كونفوشيوس » و « المسيح » .

وهكذا سوف تظل النوبة خالدة فى سجلات التاريخ ، ذلك لانها جزء من التراث الانسانى على هذا الكوكب الذى لا يدرك كنهه .

ان ماتوارد على الجنس البشرى من خير وشر ، ونعيم وبؤس ، ورخاء وشدة ، قد انعكست صورته على النوبة ، بل كان للنوبة منه نصيب كبير .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
كلمة المؤلف	٩
الجزء الأول	
— «النوبة فى عهدنا الحاضر»	١١
الجزء الثانى	
— «النوبة فى عهدنا الماضىة	٣٣



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - دمشق الفرع

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } طبع
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيبة - روض الفرج

٤١٠١٢ / ٤٠٧٥٣ } للمقرون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

العدد ١٥ قرش

العدد ٤٦

Biblioteca Alexandrina



0230684